

مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري

النائم الحجَري

مـاك دزدار

شعـر

ترجمة

إليـاس فـركوح

عن النَصّ الإنكليزي

STONE SLEEPER MAK DIZDAR

الذي ترجمه

فرانسيس ر. جونز



النائم الحَجَري
ماك دزدار
شعـــر

ترجمة

إليـــاس فركوح

عن النّصّ الإنكليزي

STONE SLEEPER MAK DIZDAR

الذي ترجمه

فرانسيس ر. جونز

Francis R. Jones

الكويت

2010

راجعه

عبدالعزيز محمد جمعة

محمود إبراهيم البجالي

الصف والتنفيذ

قسم الكمبيوتر في الأمانة العامة للمؤسسة

الإخراج وتصميم الغلاف

محمد العلي

الطبعة الأولى

تصدر بمناسبة انعقاد الدورة الثانية عشرة للمؤسسة

دورة خليل مطران ومحمد علي/ ماك دزدار

سراييفو/ البوسنة

١٩ - ٢١ أكتوبر ٢٠١٠م.



مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري

هاتف: 22430514 - فاكس: 22455039 (+965)

E-mail : kw@albabtainprize.org

التصديـر

محمد علي/ ماك دزدار (١٩١٧ - ١٩٧١) الشاعر البوسنوي الكبير والذي عُرِف بلقب (ماك) وهو الاسم الذي استخدمه للتمويه ليتفادى المخاطر المحدقة به أثناء الغزو الذي تعرضت له بلاده، نظم العديد من القصائد والمجموعات الشعرية التي ينادي فيها بحرية وطنه.

وعندما وقع اختيار مجلس أمناء مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري على مدينة سراييفو عاصمة جمهورية البوسنة لتكون مكانًا لانعقاد الدورة الثانية عشرة، رأت المؤسسة أنه من الضروري أن يطّلع القارئ العربي على نماذج من الشعر البوسنوي.. وبالمقابل نتيح للقارئ في البوسنة فرصة الاطلاع على نماذج من إبداعات الشعر العربي.

ومن هنا، تم اختيار عدد كبير من القصائد لشعراء عرب أنشدوا للبوسنة وتعاطفوا مع نضالها من أجل التحرر والاستقلال.

لقد قامت المؤسسة باختيار أكثر من مائة قصيدة تناولت البوسنة وما مرّت به من منعطفات عبر تاريخها وترجمت هذه القصائد إلى اللغة البوسنية حيث قدمتها إلى القارئ البوسنوي ليقف على المشاعر الحقيقية لإخوانه من أبناء الوطن العربي تجاه شعب البوسنة وما تعرض له من مآسٍ استهدفت المصير والوجود..

وحتى تكون الصورة مكتملة، ويطّلع القارئ العربي كذلك على بعض النتاج الشعري والفكري للبوسنويين، أسندت المؤسسة إلى الأستاذ إلياس فركوح ترجمة

مجموعة الشاعر ماك دزدار التي جاءت في أشهر كتبه «النائم الحَجَري» المترجم إلى اللغة الإنجليزية.. وهي قصائد ومقطّعات شعرية حملت صوت البوسنة والبوسنويين وتطلعاتهم وآمالهم والتي كبتت قهرًا وظلمًا منذ مئات السنين ولكن كما قال شاعرنا العربي الخالد أبوالقاسم الشابي:

إذا الشعبُ يومًا أراد الحياةَ
فلا بدّ أن يستجيبَ القدر
ولا بدّ لليل أن ينجلي
ولا بدّ للقيد أن ينكسر

وها هو القدر يستجيب لشعب البوسنة الصابر المكافح، فتسطع أشعة الشمس ويزول الظلام ويعم الضياء؛ ونختار سراييفو لنعقد بها الدورة الثانية عشرة (دورة خليل مطران ومحمد علي/ ماك دزدار) ندعو فيها لثقافة الحوار والسلام والمحبة بين الجميع ليجني الجميع في الوقت نفسه الخير والازدهار والسلام.

والحمد لله من قبل ومن بعد،،

عبدالعزيز سعود البابطين

الكويت في ١٩ من رجب ١٤٣١هـ

الموافق ١ من يوليو ٢٠١٠م

****

تقديم الترجمة العربية
ثلاث ملاحظات

بدايةً من العنوان، يجد المرء نفسه في مواجهة مباشرة مع إشكاليّة الترجمة، وخاصةً إذا ما كانت لنصٍّ شعري، وتحديداً إذا ما كانت هذه الترجمة تستند إلى نصٍّ شعري هو وسيطٌ ومترجَمٌ عن أصلٍ مكتوب بلغة ليست نابعة من جَذرَي اللغتين اللاحقتين عليها (الإنكليزيّة فالعربيّة). في حالةٍ كهذه، وحيال خصوصيّة شعر ماك دزدار، أو محمد علي دزدار، المتصفة لغته بغموضٍ ما والتباسٍ في تركيبها، (حتماً بسببٍ من منحاها التجديدي) حتّى لدى أهلها من المثقفين بحيث أدّت إلى وسمها بـ«الصعوبة والوعورة»؛ فستكون مهمة المترجم، حينذاك، مضاعفة.

إضافةً إلى إشكاليّة اللغة هذه، فثمّة أكثر من طبقة من الدلالات والمعاني المستترة في تضاعيف النصوص تحتاجُ إلى ما هو أكثر من مجرد القراءة المستريحة لِمُعطًى جاهز مُتَفق عليه، وإلاّ فإنَّ المقروء يبقى باباً مُغلَقاً أمام قارئه. ثمّة ضرورة لعملياتِ حَفْرٍ معرفيّة تجوبُ في حقبةٍ معينة من التاريخ المنسيّ والمُهْمَل للبوسنة. وفي المدفون الغامض، وربما الإشكالي أيضاً، الخاص بطقوس وأسرار مذهب مرجوم ومُتَّهَم بالهرطقة ومُطارَد من قِبَل آباء الكنيسة المسيطرة آنذاك، اضطره لأن يتوارى في الخَفاء. وزاد من خَفائه «تحت الأرض»، شيوعُ الإسلام ديناً رسميّاً للبلاد ودخول أهلها فيه، إثر الحكم العثماني وبعد زواله حتّى الآن.

من هنا، يصير من الضروري على المترجم إجراء عمليات بحث وتنقيب أشبه بالحفريات الأثريّة، مستقصياً الأصول، أو ما يقترب منها! وهذا، ولغاية بَسْط الحقيقة وعدم إغماط المترجم الإنكليزي حقه (السيد فرانسيس ر. جونس)، أنوِّه بما أسعفتني

به كثيراً مجموعةُ الهوامش، التي أدرجها في نهاية الكتاب، في فَضّي لمغالق العديد من النصوص، والأحداث، والأسماء، والأماكن بحيث تلاشت غمامةُ الفهم عند القراءة الأولى، وتكشَّفَت غوامضُ غير المعروف لديّ.

إذًا؛ الترجمةُ، إضافةً إلى كونها عمليّة بحث في المعنى على مستوى اللغة؛ فإنها حَفْرٌ في تاريخ الفضاءات التي يتحرك النصُّ في أمدائها. إنها حَفْرٌ مَعْرِفيّ.

بدأتُ بالإشارة إلى أنَّ العنوان سبَّبَ لي معضلةً، ربما تكون صغيرة، لكنها ذات صِلة بشفافيّة الكلمة وما تجلبه معها من تأويلٍ لقارئها حيال الانزياح الشِّعري عندما تتضفرُ بكلمة أخرى على نحوٍ ما. إنَّ العلاقة المتبدلة والمتحركة بين الكلمات المشكِّلة للجُمَل تعملُ على توليد طاقة جديدة للّغة، أو بالأحرى على تفعيل طاقتها، وتمنحُ القارئَ فُسحةً لإضافة أبعادٍ أُخرى لمألوف المعاني المباشرة. وهذا يتصل، عند توسيعنا للمسألة، بكيفيّة تحسسنا للجملة الواحدة ونقلنا لها، لا بحرفيّة معرفتنا بها وترجمتنا لمعناها الفوري. فخلال الاستقصاء، بالتشاور مع الصديق الأستاذ إسماعيل أبو البندورة، صاحب التجربة في الترجمة من اللغة البوسنيّة، والذي استعانَ بدوره بأحد أصدقائه من المثقفين البوسنيين (د. أسعد دوراكوفيتش)، ثَبُتَ أنَّ عنوان المجموعة الشعريّة هو «النائم الحَجَري» وليس «نائمُ الحَجَر»، كما أتى به تأويلي عند الترجمة. لكنني، بيني وبين نفسي، ما زلتُ أفضِّلُ إحلال خطئي الطارئ وتنحية الصواب الشائع، لِمَا يتضمنه الخطأ من حُريّةٍ في استكناه ما تحت المعنى الظاهر والمكشوف. أي: قراءة النصّ في طبقته السُفلى. أو، بحسب عنوان دراسة الأستاذ محمود تشيخاياتش، «النصّ تحت النصّ» (التي هي من الأهميّة والعمق بحيث تتطلب تفرغاً كاملاً لترجمتها للعربيّة من لغتها دون وسيط ونشرها في كتاب لوحدها)؛ إذ من دون ذلك يتكلّس الشعرُ في صُوَرٍ جامدة خِلافاً لطاقته المُتيحة لتوليد عددٍ من الأخيلة بتعدد قُرّائه واختلاف مرجعياتهم الثقافيّة.

إنه «نائمُ الحَجَر»، ليس لأنها إحدى الترجمات الممكنة للعنوان الانكليزي Stone Sleeper، وإنما لكون الموضوعة الرئيسة لكلّيّة الديوان تشير إلى أنَّ ضحايا وموتى

الاضطهاد الديني الراقدين تحت شواهد القبور، سوف يُبْعَثون من جديد، هازئين بقاتليهم، قُضاة محاكم التفتيش. وبالتالي، فهم ليسوا نياماً تحجّروا (الحجارةُ ميتة إلى الأبد)، بل النيامُ تحت الحجارة وبينها ينتظرون ساعةَ قيامتهم ليستيقظوا.

على هذا النحو جاءت قراءتي للعنوان بنتيجتها، والتي كانت وليدة أمرين:

1. ركوني إلى تحسسي للجملة الشعريّة حين تنبع من وَقْعها داخل لُغتي أنا (العربيّة)، وانسجامها مع المعنى السُفلي والأعمق، من غير ارتهانٍ للسائد والسائر.
2. التماهي، مثلما أراه، بين عنواني الخاص من جهة، وفضاءات النصّ بكُلّيّة قصائده من جهة أخرى.

.. غير أني التزمتُ بالسائد السائر، خائناً خيانتي كوسيطٍ يملكُ قراءته المغايرة. أي: كناقلٍ يتحسس، وليس كمترجمٍ «أمين» يحافظ على عِفّة الكلمات!

عند القراءة المتأنيّة لمجموعة القصائد الموزَّعَة على الأقسام أو الأبواب الخمسة التي تشكّل الديوان، يبدو واضحاً لجوء الشاعر إلى لغةٍ باتت مفرداتها مهجورة. وبالتالي تحوّلَت، هي نفسها، إلى مادة تحتاج إلى عمليات سَبْرٍ وإعادة اكتشاف مثلها، في ذلك، مثل الفضاءات المرسومة المحمولة في تضاعيف القصائد. وهكذا، يتبيّن لنا الجُهد الاستثنائي والخاص بدزدار الذي اشتغلَ على مرحلةٍ من تاريخ بلده لا بوصفه مجرد شاعر؛ وإنما الباحث والدارس والمُنَقِّب في آن كأنما جعلَ من نفسه ومن تلقائها مؤرخاً! وبذلك، يقدّم دزدار لقُرّائه مادةً ثقافيّةً ومعرفيّةً يستكملُ من خلالها عمليات بعث وإعادة إحياء لتراثٍ وطني يختصّ بشعبٍ تراكمت فوقه خطوبُ الزمن، وتكالبت عليه سطوة الامبراطوريات والدول.

إنها مهمةٌ ثقافيّةٌ كبيرة، وبالتالي فهي، في قلب الظرف القائم، مهمةٌ وطنيّة كبيرة أسداها دزدار لتراث شعبه.

ولأنَّ اللجوء إلى مفردات لغة قيد البعث، كان على مترجمها الإنكليزي السيد فرانسيس ر. جونز، أن يوازيها بلجوئه، هو الآخر، إلى مفرداتٍ باتت مهجورة في كُلٍ من اللغتين الإنكليزيّة والاسكتلنديّة، الأمر الذي أدّى إلى مضاعفة صعوبة الترجمة

عليَّ. ولعلّي، بإيرادي هذه المسألة، أستميحُ لنفسي عُذراً في عدم الرضا التام عمّا انتهيتُ إليه. لكنني، في الوقت نفسه، أزعمُ بأني لم أُخِلّ بجوهر العمل، ولم أضعضع البناء الكُلّي للفضاء العام.

مع ذلك؛ وبدافع من الواجب الأخلاقي والأدبي، عليَّ الإفصاح بأنَّ عُسْراً هائلاً في قصيدتين حالَ دونّي وإخراجهما في حالة الرثاثة والنقص، وهما: «ثراء» و«نصّ عن الضحك»، فلم أدخلهما ضمن هذا الكتاب. قصيدتان بحاجة إلى مترجم يمتلك (عدةً استثنائيّة) تمكّنه من معالجة التعقيد اللغوي والغرابة في التركيب. ولكيْ أطمئن إلى قراري؛ أحَلْتُهما على الصديق الأستاذ إسماعيل أبو البندورة، فما كان منه، بعد مراجعتهما بلغتهما الأصليّة، إلاّ أن نصحني بتنحيتهما، وهذا ما فعلته.

واستكمالاً لمبدأ وجوب الصدق والأمانة، عليَّ الإقرار بأنَّ قصيدة «نصّ عن الرحيل» و«كلمة عن الابن» الواقعتين في القسم أو الباب الرابع (كلمة عن الأرض) هما من ترجمة الصديق إسماعيل أبو البندورة ومن لغتهما الأصليّة؛ إذ حال النصّ الإنكليزي بمفرداته القديمة والمهجورة دون قدرتي على النفاذ إليهما ونقلهما للعربية على نحوٍ يُقنعني أنا أوّلاً، قبل سواي. فكل الشكر له على ما قدّمه لي، بصبر ومتابعة، من نُصحٍ وإرشاد.

وأخيراً،

أوّد تقديم امتناني لمؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، وللدكتور محمد الأرناؤوط للثقة التي مُنحتُها، باختياري مترجماً لهذه النصوص الصعبة، التي وافقتُ على التصدي لها قبل اطلاعي عليها إذ لو فعلتُ، لكان من المتوقع مني الاعتذار. إنها وَعِرَة بكل المعاني.

أهذا تبريرٌ لعجزي عن الاحتفاظ بمستوىً واحد في جميع القصائد؟

لِمَ لا؟

إذ لا شيء يكتمل.

إلياس فركوح

١٥ نيسان/ إبريل ٢٠١٠

****

Mehemed Alija Dizdar

محمد علي دزدار

وُلِدَ محمد علي دزدار، الشاعر البوسني الأعظم في هذا القرن، عام 1917 في ستولاتس Stolak، البلدة الرئيسة لمنطقة «هم Hum» شمالي البوسنة. عرفه القُرّاء لا باسْمِهِ الذي سُمّي به حين ولادته، ولا باسْمِ الأب مُحرّم Muharem؛ وإنما باسمه الأدبي ماك Mak – اللقب الحَرَكي الذي استخدمه عندما كان عضواً في حركة المقاومة المقاتلة ضد الفاشيّة خلال الحرب العالميّة الثانية. ومع أنه كتبَ ونشرَ مجموعة قصائد منذ فترة البدايات حتّى وفاته عام 1971؛ إلا أنَّ دزدار عُرِفَ جيداً وعلى نطاق واسع بكتابه «النائم الحَجَري»، الذي شكَّلَ نقطة تحوُّل في الشِعر البوسنوي وجنوبي السلاف في القرن العشرين. ظهرت الطبعة الأولى من «النائم الحَجَري» عام 1966، غير أنه، وقبل وفاته بمدة قصيرة، قَدَّمَ الشاعرُ لدار نَشْرٍ في موستار Mostar مخطوطةً للقصائد جديدةً ومُعَدَّلةً على نحوٍ جذري لغاية الإصدار، والتي جاءت صياغتها انعكاساً أكثر قُرباً من لُغز وغموض المصير البوسنوي. واستناداً إلى هذا الإصدار، المنشور بعد وفاته عام 1973، بُني هذا المُجلّد.

يتحدّث «النائمُ الحَجَري» عن الكريستياني (المسيحي) krstjani، الرجل المؤمن بالكنيسة البوسنيّة المنشقَّة في العصور الوسطى، الذي استلقى منتظراً يومَ الحساب بين القبور الحجريّة البيضاء، حيث، منفرداً أو جماعيّاً وفي المقبرة الكبيرة، ما يزال يظهر للعيان وبوضوح المشهد العام للبوسنة، المادي والثقافي والديني. في هذا العمل، يعودُ الصوتُ ليتكلّم من جديد بعد مئاتٍ من سنين الصمت. إنه صوتُ البوسنة، الذي حُجِبَ في الرموز المقدّسة المنحوتة، والمدوَّنَة في القرارات وسِجلات التاريخ، والتي

نَجَت من جميع محاولات تدميرها: لقد أُرْسِلَ صيادو المهرطقين والـمُنْشَقّين لملاحقة هذا الكرستياني من قِبَل الكنيسة المؤسّسَة، كما أنَّ حارقي الكُتُب في زماننا هذا ليسوا وحدهم قوى الظلام ممن حاولوا خنق هذا الصوت. ولعلّها ليست مصادفة أن يكون ماك Mak، اسم دزدار الأدبي، يعني «الخشخاش»، رمز الأرض، والنوم، والموت؛ وحين يصيرُ أن نعكس حروف الاسم ، نحصل على kam، وهي كلمة حَجَر في العصور الوسطى.

(من كتاب رُسْمِر محمود تشيخاياتش:
النصّ تحت النصّ: شعر ماك دزدار)

ويا أنتَ لا تأمرني من غير احترام:
«سرعان ما سوف يجيءُ إجلالي،
متبوعاً بمصيري المُحَمَّل - المكنون،
الذي سيعيدُ للرجال على التوالي
جائزتي الإيمان الاثنتين: الشّر بالشّر،
والخير بالخير!»

زارادوسترا، ياسنا XLIII،12

طول الانتظار يُتعبني.
روحي تضعف مرّتين في يوم واحد،
رؤيتُها تُعتِمُ، ويصبح صعباً عليها أن
تُصَدِّق.

أيفو أندريتش، Ex Ponto،I ايكسبنتو (ديوان شعر)

دروب

أنتَ حَكَمْتَ عَليَّ ألاّ أُصْبِحَ ما قد يسببُ
البكاءَ مع الأسى والفَرَح
أنتَ حَكَمْتَ عَليَّ
أنتَ أزَلْتَ ودَمَّرتَ
كلَّ شيءٍ في
طريقكَ

أنتَ قرَّرتَ أن تخلعَ جذوري بأي ثمن
لكنكَ لن تعثرَ في أي مكان
على الدرب الحقيقي
الموصل إليَّ

لأنكَ
لا تعرف سوى الدروب
المحفورة والواضحة
(وهذه ملتوية وقاحلة بالفعل
مهما كانت شاقّة
وطويلة
فإنها تبدو

لكَ
ضخمةً جداً
وقويةً جداً)

أنتَ لا تعرف سوى الدروب
التي تبدأُ
من العينين
ومن
القلب

لكنها ليست كُلّ الدروب

بعض الدروب تنبسطُ أمامنا
من غير أثَرٍ مطروق
أو تقويم
لزمن المغادرة
أو الفيضان

سبيلُكَ إليَّ مقفرٌ لكنني
أبدو واثقاً وموثوقاً
في رؤيتكَ
سبيلُكَ الآتي
من اليسار
أو
من اليمين

أنتَ تخدعُ نفسكَ بإمكانيّة العثور عليَّ
بتحديد وجهتكَ
نحو الشمال
أو
الجنوب

لكنها ليست كُل الدروب

الوباء
حِكْمَةٌ
إنها تبحثُ عن عَينيَّ
تحت السيِّد الغَجَري المتموِّج في الريح
في جذور الأرض حيث تَخَثَّرَ الظلام

ولكن من المرتفعات التي لا تُقاس
عَرَّافةُ الليل
ضغَطَت
على
الصدر
الأقوى

لكنها ليست كُل الدروب

أنتَ لا تعرف الدَّربَ الصحيح
عند تقاطُع الطُرُق
في الليل
والنهار

لكنها ليست كُلَّ الدروب

أنتَ لا تعرف في حياتكَ
أنَّ الحربَ الصحيحةَ الواحدة
أنَّ الكفاحَ الأقسى
إنما يكمنان تماماً داخل
صميمكَ

وهكذا أنتَ لا تعرف أنكَ الأخير
في أسطورتي
في الشرور
العظيمة

أنتَ لا تعرف مَن ذاك
الذي تتحداه

أنتَ لا تعرفُ شيئاً عن خارطة الطريق الخاصّة بي

أنتَ لا تعرف أنَّ الدرب منكَ إليَّ
ليس هو نفسه
كما هو الدرب مني
إليكَ

أنتَ لا تعرفُ شيئاً عن ثروتي
المخبّأة عن عينيكَ القادرتين
(أنتَ لا تعرف أنَّ المصيرَ

قد حُسِمَ
ووزَّعني
أكثر بكثير
مما
أنتَ
تَظُنّ)

أنتَ قرَّرتَ أن تخلعَ جذوري بأي ثمن
لكنكَ لن تعثرَ في أي مكان
على الدرب الحقيقي
الموصل إليَّ

(أنا أفهمكَ:
أنتَ رَجُلٌ في فضاءٍ واحد وزمانٍ واحد
تعيشُ فقط هنا والآن
أنتَ لا تعرفُ الفضاءَ والزمانَ
المنفلتين من الحدود
حيث أُوجَدُ أنا
حاضراً
من أمسٍ بعيد
إلى غَدٍ بعيد
أفكِّرُ
بكَ

لكنها ليست كُل الدروب)

****

كلمة عن الإنسان

رأت معتقدات البلقان الثنويّة في المُعَرَّضين للفناء مثل ملائكة ساقطين، طُردوا من الجَنَّة وسُجِنوا في أجسادٍ بَشَريّة. لكنهم لم يعودوا إلى الجَنّة عند موتهم: ظَلَّتْ أرواحهم داخل أجسادهم إلى يوم الحساب/ الدينونة.

الأولى

تولدُ في جَسَدٍ أُغْلِقَ عليه بالأوردة
حالماً بأنَّ السموات السبع تهبطُ إليك

مُغْلَقٌ عليكَ في قلبٍ متصل بالأدمغة
حالماً بالشمسِ سوداء بلا نهاية

مرتبطٌ داخل جِلدكَ بالعِظام
فأينَ الجسر

إلى عروش السموات؟

الثانية

مُغْلَقٌ عليكَ في قَفَصٍ صدري من فِضَّةٍ هي سلاسلُكَ
كُنْ أنتَ لستَ أكثر بياضاً من عَبْد الأرض

تولدُ في جَسَدٍ أُغلِقَ عليه بالأوردة
حالماً باتحاد السماء والأرض

مطرودٌ أنتَ من الجنَّةِ تعطشُ للنبيذ والخبز
فمتى يصيرُ بيتُكَ

هو بلادكَ بَدَلاً عنها؟

الثالثة

مُغْلَقٌ عليكَ مع عِظامٍ أُفْرِغَت في اللحم
وقريباً ستنتأ عِظامُكَ من خلال هذه الشبكة

مطرودٌ من الجنَّةِ تلتمسُ النبيذَ والخبز
حَجَرٌ ودُخانٌ كلُّ ما ستناله بَدَلاً عنهما

أرى يدكَ الواحدة ولكن أين هي الأخرى
هل ارتفعَت

لتقتلَ شقيقَتها؟

الرابعة

مُغْلَقٌ عليكَ في قلبٍ متصل بدماغ
الشمسُ التي تتوسلها هي كهفُكَ الأسود

حالماً بالجنّةِ قريبةً مرّةً أُخرى
ولا يزال جسدُكَ يترنحُ سَكراناً عبر الأغصان

مُغْلَقٌ عليكَ داخل دَم أكَلَتْهُ الجذور
فهل أنتَ في رقصة الكولو(*) الأسيانة هذه

تقودُ
أم تُقاد؟

الخامسة

في رقصة الكولو الأسيانة هذه لستَ قائداً ولستَ مُقاداً
أنتَ حانةٌ من قذارة سريرِ نزوةٍ ما

موثقاً من جسده يتحركُ القبرُ وحيداً
ولكن متى سيكون لهذا الجسد

أن يكونَ حركةً هي حركته؟

****

(*) كولو Kolo: رقصة دائريّة يؤديها السلاف الجنوبيون. تدل النقوش المنحوتة على القبور أنها بقيت دون تغيير منذ العصور الوسطى.

كلمة عن السماء

مِثْلُ القَويم(*)
يمشي عَبْرَ الأرض
عَبْرَ الليل والضوء
أَجَل، هو عاينَ الشرّيرَ
وعاينَ المريض

وحَمَلَ أوجاعهما

ثم بعدها رفعَ رأسَهُ
وللسماءِ نطقَ كلمةً

(*) مِثْلُ القويم The Rightwise هو التهجئة الأصليّة لـ«الصالح أو المستقيم».

عرفت الكنيسة البوسنيّة مستويين للتقوى والعبادة. سُمِح للعديد ممّن سُمُّوا «بالمستمعين» بالزواج وأكل اللحم وشُرب الخمر. أما القِلّة، المستقيمون أو البالغون، فكانوا يُحْرَمون من هذا. ولقد اختارَ كثيرٌ من المستمعين أن يتحوّلوا إلى مستقيمين عندما شارفوا على الموت.

يقول التقليد الشعبي البوسني إنّ لهؤلاء المدفونين تحت شواهد القبور قوىً سحريّة. وماك دزدار قال بأنه اشترك، عندما كان طفلاً، في طقوس في مقبرتين وذلك للصلاة من أجل هطول المطر، ورأى كيف أن النساء المحليات يبردن غبار الحجارة من الشواهد ضمن اعتقادهنّ بأنها تشفي من أمراض عدة. كذلك تقول الأسطورة إنّ البَرَدَ لا يسقط إطلاقاً على الشواهد التي لا تزال تُخْدَم.

إنّ الإلهام المباشر لهذه القصيدة مُستقى من أسطورة تحكي كيف أنّ أحد الصالحين المستقيمين قُتِلَ في إحدى مطاردات الهراطقة بغية قتلهم، وهو مدفونٌ في مقبرة كبيرة بالقرب من ستولاتس Stolac، فيأخذ صوته يناشد السماء متواصلاً للأبد، إلى أن يُلبّى. ويمكن سماع الصوت شريطة الصمت التام، ومن قِبَل مَن يحارب من أجل العدالة بالفكر والكلمة والعمل.

تَرَجَّى أن يُقالَ السِّرُّ
عن درب هذه المقبرة

تَرَجَّى أن يُقال السِّر

ولكن وحدهُ صمتُ الممرّ
ملأ جوفَ الفضاء
واحسرتاه! لم تُسْمَعِ الكلمات
إلاّ ممن لا أرواحَ لهم

فقط ممن لا أرواحَ لهم

صَخَبُ التِنّينِ المبتهج(*)
الأفعى الناريّة الطائرة
سقطَت الكلمةُ كالميّتة
فوق الظلام الأصَمّ

الكلمةُ سقطَت كالميّتة

هبطَ إلى داخل نفسهِ
عميقاً. في سراديب الموتى
حيث كِلابُ الصّيد تمزِّقُ اللحمَ
بعد انتهاء المجازر

حيث كِلابُ الصّيد تمزِّقُ اللحمَ

(*) The Dragoun: رسومات للتنين الموجود على شواهد القبور وفي المخطوطات البوسنيّة من العصور الوسطى. ورد ذكره في «سِفر الرؤيا» (2.20) ص 397. فالتنين هو تلك الأفعى القديمة، إنها الشيطان إبليس.

ثم أُنْزِلَ جسدُهُ
في رحلتهِ عَبْرَ الظلام
لكنَّ الصوتَ سقطَ إلى الأسفل
وتراجعَ رنينُهُ عَبْرَ السكون

الصوتُ تراجعَ رنينُهُ عَبْرَ السكون

إنهُ الصوتُ الذي طارَ للأبَد
الذي ارتفع عالياً نحو السماء

أَجَل، الذي ارتفعَ للأبَد

ملاحظة

داخلَ أعماقِ الموتِ القصوى
عندها تصبحُ الألوانُ أكثرَ صَفاءً

****

نَصٌّ عن الصَّيد

مياهُ تَحْتيّةٌ تستيقظُ من النوم الأعمق وتخرجُ حُرَّةً
وتُبحرُ عَبْرَ فَجْرٍ رائقٍ وجليل
باتجاه نهرٍ بعيد
باتجاه بَحْرٍ
كئيب

ترتحلُ ابنةُ الظَّبيِ صابرةً بين اخضرار الغابة الذهبيّة
لن تتوقف حتّى يأخذها
مشوارُها إلى ربيعها
إلى مصدرها

تنزلقُ أنثى الظبيِ مهتاجةً مرتبكةً بين الشجيرات الصفراء
تبحثُ عن هَمْسٍ زائلٍ تبحثُ عن الأيام المنقضية بسرعة
تلك المارّة بين العُشب المُعْتِم المتضائل بين تموّجات
الأعشاش الخضراء

رأيتُ ذَكَرَ الأيل خُدِعَ بعيني أنثاه
مسلوبَ اللُبِّ بنظرتها حتّى مغيب الشمس
أوصالُهُ تَخَدَّرَت

خطوتُهُ

باتت حمراء

فارسٌ طويلٌ يُخْضِعُ مساحات من عدم الراحة والهياج

صامتٌ وسيمٌ برغبةٍ عميقة عمياء

يطأُ الأرضَ بلا صوتٍ خلف

عواءٍ ونباحِ كلابِ الصيد

لاهثاً ومُجْهَداً وظمآناً لدماءِ ساحاتِ القتالِ

المستقبليّة

أرى ذلك كلّه في ثانيةٍ في شمس هذا النهار

كأنما بنظرةِ

يَد

و

أعرفُ أنَّ ذاك الربيعَ الجائعَ المتلألئ لن يدخلَ أبداً بِلْتاهُ البعيدة

ملاذَهُ الرقيق، إذ أعرفُ أنَّ ذلك النَبْع

لن يعانق أبداً حَصاتَهُ من

حَجَر الكوارتز الصافي

أنثى الأيلِ الحَزُون لن تسمعَ أبداً الصرخةَ الخافتةَ المُرَحِّبَةَ بها

الملاحقةَ لها، الملاحقةَ لها عَبْر الغِطاء

لن تسمعَ أبداً ثُغاءَ

أُمّها

ذَكَرُ الأيل لن يعودَ يرتقي المنحدرات، وثانيةً
لن يُرسل أصداء إجابته على الصرخة الخضراء
للمطر
الأخضر

وكذلك الفارسُ الطويلُ الصيّادُ الرائعُ في رداء المعركة
وسط الموكب وكُل مظاهرة
الذي ما أضاعَ يوماً سهْمَ المعركة
من قوسه
المنثني

لأنه في تلك اللحظة الوحيدة التي انقسَمَت إلى ثانية
حين الاستغراقِ في الذاتِ يصيبُ جميعَ الصيّادين
وتماماً يكون
وحيداً
أنا (غروباتش)(*) المحارب اصطدتُ هؤلاء الصيّادين وأوقعتُهم أرضاً
بأشعةٍ ليست مرئيّة كتبتُهم بدهاءٍ قاهرٍ ورسمتهم حقًّا
في أعلى
في بياض
هذا الحَجَر

****

(*) المعلّم غروباتش Grubac، الذي عمل في منتصف القرن الخامس عشر، وأحد أشهر نَحّاتي شواهد القبور، حيث نَحَتَ واحداً يمثّل منظراً متقناً للصيد.

الابن

ابنٌ صغير في فرارهِ من أبيه
بنى بيتاً على مَرْجٍ بين جبلين جليديين

غير عارفينَ مَن هو، نظرنا إليه في البداية بارتياب

ثنَى رُدْنيهِ وحَرَثَ الأرضَ جيداً وعميقاً
عميقاً حتّى رَحِمها عميقاً حتّى قلبها

مستريحاً بعد جهده، لوّحنا له بيدٍ صديقة
ثم عالياً فوق الظلام حَلَّقَ تماماً مثل صقر

وبدأ يظهرُ عند كلِّ منعطفٍ عند كلِّ مسلكٍ وتشعُّب
أثلامُهُ ووجوهنا توهَّجَت في أشعته

ثم تعانقنا كأنما عند إشارةٍ انتظرناها طويلاً

تَجَمّعْنا معاً وأصبحنا مثلَ واحد
أكلنا وشربنا كأنما كُنّا نفعل ذلك دائماً

لم يكنْ مجرَّدَ زائرٍ صيفيٍ ابنُنا هذا
حتَّى الوادي العقيم تفتَّحَ وأزهرَ ممتلئاً بالورود

وفجأةً سُرِقَ مِنّا ابنُنا الصغير

أين ذهبَ وإلى ماذا وكيف؟
وحده الربُّ الرحيمُ مَن يعرفُ الآن

لعلّنا نسيناهُ مثل بعض فُرَص الحظ الطيّب
(ما يأتي بسهولة يذهب بسهولة)
إنْ لم نكن ما زلنا نُدفئ كاملَ أرواحنا

بحرارةِ يديه الذهبيتين الغائبتين منذ زمن بعيد

****

كولو

يداً بيد

موثقاً بقيد

يداً فوق يد

مِلْحٌ على جُرْح

الأرضُ ترزحُ في الأسفل ثقيلةً

السماءُ عالية

لو كنتُ صقراً

عندها أستطيع الطيران

****

الصّلاة(*)

لا أملكُ سِوى
صلاةٍ واحدة
هنا على هذه

أرضنا بلا خُبْز

لم أعرف سوى
صلاةٍ واحدة
صلاةٍ عن

خبزنا غير الأرضي

****

(*) النسخة البوسنيّة للصلاة الموجَّهَة للرب – الصلاة الوحيدة التي يعترف بها الكريستياني (المسيحي) – اختلفت في إحدى التفاصيل الأساسيّة عن النسخة التقليديّة. فـ «اليومي» nasusni (الأساسية، الجوهريّة) ضمن عبارة «أعطنا اليوم خبزنا اليومي» اسْتُبْدِلَت بـ inosusni (من جوهر آخر، أي: الروحي أو السماوي.)
(ديفيد هوجو
من أوراق ماك
في الختام كانت الكلمة)

الغزال

مُحْبَطون لأنهم ما استطاعوا حَلَّ شَفرَة اللسان
التي قد تجعلهم يتكلمون مع الأشجار في الغابة

(هؤلاء الرجال)

أحضروا الجَمَرات وأحرقوا الغابةَ حتّى الجذور
ففرَّت ذكورُ الأيل بقرونها المتشعّبة مذعورةً واختفت

(وتفرَّقَت في جِهات الريح الأربع)

بقلوبٍ أمَاتَها الخوفُ أسْرَعَت بألوانها المتدرجةِ وصيحاتِها
وهَوَت طرائدُهم الماكرةُ أرضاً بحجَر الفأس القاطعة

(التي لا تستطيع حتّى النار أن تحيلها إلى جمراتٍ خامدة)

هناكَ نَمُوا بآلافٍ مضاعفةٍ وها الآن يافعُهم الحَزُون
ينتظرُ غابةً جديدةً ترتفعُ ليعيشَ فيها من جديد

(تحت جناحها
في حكاياتٍ يتمّ تذكّرها عن آباءٍ وأجدادٍ ماتوا ومضوا)

****

الأيدي

أحملُ هاتينِ اليدينِ مثلَ رايتين

عَبْرَ حقولٍ من الأحجار الحيّة

لكنَّ هاتين اليدين المُتعبتين في القلوب المتحجرّة

تعيشان الآن وحيدتين

****

نَصٌّ عن ربيع

تلاشيتُ
وتدفقتُ

نحوَ الجدولِ اندفعتُ

نحو النهر

نحو البحر

وها أنا الآن

ها أنا الآن
أخلو من نفسي

ممرورٌ

كيف لي أن أعودَ
إلى منشأ انبجاسي؟

****

القمر(*)

من الظلمةِ الكثيفة ليومٍ كئيبٍ ظهرَ
الوجهُ الناعمُ لِقَمَرٍ فوقَ رؤوسنا

يُبْحِرُ الآن في الاتساع الكامل الذي يبلغه من سمائه
موقظاً أولئكَ الذين أضاعوا أنفسَهم

قبلَ أن يتعبَ من رحلتهِ المُشِعَّةِ
قبلَ أن يسقطَ شَمْعُهُ عن الدَّرَج

(قبل أن يُرْبَط من كلّ جانبٍ
بِشَعْرٍ أبيض وفِضّي)

انْقُشْ علامتَهُ في البياض الناعم للحَجَر الكِلْسي
لعلّكَ بذلك تتشرَّبُ بكلٍّ ما تستطيعُ من إيمان

صورةَ آلامكَ وآمالِكَ اللامتناهِيَين

****

(*) في اللغة البوسنيّة، كما في الألمانيّة واللاتينيّة، ثلاثة أجناس من حيث التذكير والتأنيث، وثمة جنس ثالث. فالقمر (mjesec) مذكّر وبالتالي تُشَخَّص كمذكر، بالرغم من أن القمر في الإنجليزيّة مؤنث. والعكس هو حال الموت (smrt) الذي يُعتبَر مؤنثاً في اللغة البوسنيّة، وبالتالي تُشَخَّص كأنثى.

نَصٌّ عن الزمن

منذ عهدٍ بعيد تمدَّدتُ هنا قبلَ أن تكونَ أنتَ(*)
وبَعدكَ
سوفَ أتمدَّدُ لِعَهْدٍ بعيد

منذ عهدٍ بعيد
غَطَّت الأعشابُ عِظامي
منذ عهدٍ بعيد
كَسا الدِفءُ لحمي
منذ عهدٍ بعيد
حظيتُ بآلاف الأسماء
منذ عهدٍ بعيد
نَسيتُ اسمي

منذ عهدٍ بعيد تمدَّدتُ هنا قبلَ أن تكونَ أنتَ
وبَعدكَ
سوفَ أتمدَّدُ لِعَهْدٍ بعيد

****

(*) بيت الشِّعر الأوّل مأخوذ من الشاهد / البلاطة على ضريح شخص اسمه Stipko Radosalic، وهو موجود قرب قرية Ljubinje. يُظهر النقش الشاهد stecak قمراً هلالاً: القارب الذي سيحمل الميت في آخر الأمر إلى الحياة الأخرى.

المطر

نحنُ بحاجةٍ لأن نتعلّمَ من جديد
أن نُنصتَ للمطَرِ المطر

نحنُ بحاجةٍ لأن نُخْرِجَ أنفسَنا من تَحَجُّرِها
وعيوننا للأمامِ لنمشي بإقدامٍ عَبْرَ بوابة المدينة(*)

نحنُ بحاجةٍ لأن لا نُغَطّي آخرَ الممرّات
التي تَمُرُّ خلال العُشب الأشقر

نحنُ بحاجةٍ لأن نُعانِقَ الخشخاشَ والنَمْلَ
المذعور في هذه الكَثرةِ من المزروعات

نحنُ بحاجةٍ لأن نغسلَ أنفسَنا من جديد
ونحلمَ في قطراتٍ نظيفةٍ من نَدى الفجر

(*) بوابة المدينة:

«وأنا يوحنا رأيتُ المدينةَ المقدسة، أورشليم الجديدة، نازلة من السماء من عند الله، ومهيأة كعروس مزينة لرجلها (...) والأمم منهم الذين تم خلاصهم وتمشي شعوب المخلصين بنورها (...) وأبوابها لن تُغْلَق نهاراً لأنْ ليلاً لن يكون هناك». (سِفر الرؤيا 25.24.2:21) صفحة 419، 421. «أما غير المؤمنين فيكسبون العقاب الذي يستحقونه منذ زمن: لكن الخائفين غير المؤمنين (...) فنصيبهم في البحيرة المتقدة بنارٍ وكبريت: الذي هو الموت الثاني». (الرؤيا 8:21) صفحة 420،421.

نحنُ بحاجةٍ لأن نُصابَ بالإغماء
بين الضفائرِ المظلمة للشَّعرِ الدُهني

نحنُ بحاجةٍ لأن نقفَ قليلاً إلى جانب شمسنا
وننمو طويلاً مثلما هو طولُ ظِلّنا

نحنُ بحاجةٍ لأن نلتقي من جديدٍ بقلوبنا
التي فَرَّت منذ زمنٍ بعيد

نحنُ بحاجةٍ لأن نحرِّرَ أنفسَنا
وعيوننا للأمامِ لنمشي بإقدامٍ عَبْرَ البوابة الحَجَريّة لهذه المدينة الحَجَريّة

نحنُ بحاجةٍ لأن نتمنّى بكلٍّ جوارحنا
ونُنصِتَ طوال الليل للمطرِ المطر المطر القويم

****

نَصٌّ عن مُسْتَجمَعِ الأمطار

1

في مَسَرّات هذه العوالم الطيبة
كنتُ أنا (أبل جويس)[*] القادر دائماً على استعادة السعادة

والذي ما يزال في ذلك الصيف القصير يبحثُ له عن الزهور
وحين امتلأ وحين كان ممتلئاً وقتها فإنه ما يزال يوقفُ له النجوم

وخلال كفاح الحياة وشَقِّه لطريقه لم يندم
وخلفَ الشمس اللاذعة رأى السماءَ زرقاء

عندما آن أوانه توقّفَ باكراً وسقطَ قطرةً على الطريق
غير أنَّ كلّ ما وجده في سقطتهِ كان كآبة القبر وعَتمته

الآن هو ليس بحاجةٍ لأي إنسانٍ ولأي شيء
في فُرْجتهِ الزرقاء داخل الغابة وفي ظِلّه البارد

الآن هو ليس بحاجةٍ لأيِّ خُبْزٍ ولأيِّ نبيذ

(*) في النصّ الأصلي لـ(ابل جويس Abel Joyce) هو Radojica Bjelic. ولقد اخترت الحفاظ على اللعب بالكلمات الأصليّة بَدَل اسمه الأصلي. كُتِبَ السطران الأولان من الجزء الأوّل والسطران الأخيران من الجزء الثاني على قبره، في ستارتسو سيلو Starco Selo قرب دوني فاكوف (الوقف الأدنى) Donji Vakuf.

هناكَ حيث لا شِبَعٌ وهناكَ حيث لا نُحول

هناكَ لا مَطَرٌ يسقطُ وهناكَ لا شمسٌ تُشّع

ليس بحاجةٍ للرأفة بي بَعْدُ ولا حاجة لنجدتي
للوصول إلى مرافئ الشمس

2

اعْذُرْني
أني صليتُ يا أنتَ

وأنتم يا أصدقائي وأتباعي والطيبين
تعالوا إلى بابي لتزوروني

لأني صليتُ للأُمِّ الإلهةِ والحَماةِ والعروس
ولأني تفوَّهتُ باسمي ليحفظني في ذاكرة الأزمنة الماضية بجواري

ولأني ذات مرَّة كنتُ مثلكَ تماماً
وكما أنا سوف تكون أنتَ

****

رقصةُ الكولو

كم هي قديمةٌ الكولو من غَوْرٍ إلى غَوْر
كم هو قديمٌ الأسى من كولو إلى كولو

كم هو قديمٌ الفَزَعُ من رُسوخٍ إلى رُسوخ
كم هي قديمةٌ القبورُ من حفرةٍ عميقة إلى حفرةٍ عميقة

كم هو قديمٌ الدمُ الذي حُكِمَ علينا بدفعهِ
كم هي قديمةٌ الميتات إلى يوم الحساب

كم هي قديمةٌ الكولو من غَوْرٍ إلى غَوْر
كم هو قديمٌ الأسى من كولو إلى كولو

من كولو إلى كولو من أسىً إلى أسى

****

راديميليا[*]

اليد

هذه اليد تقول لكَ أن تقفَ

وتُفكِّرَ بيديكَ

****

(*) Radimlja: على الأرجح أنَّ راديميليا، قرب ستولاتس stolac، هي أفخم مدينة للموتى في البوسنة خلال العصور الوسطى.

الكَرْمَةُ وأغصانها(*)

هو الحاضرُ هنا

مَن قالَ متيقناً أنَّ الأمرَ كُتِبَ وتَقَدَّسَ

أنا الكرْمةُ الحَقّةُ وأبي هو المُزارِعُ وكلّ غصنٍ فيَّ

ليس مثمراً عليَّ نزعُه

غير أنَّ شَمْعَ الحقلِ يُسَمِنُ الفاكهةَ ويُحَلّيها ويُعَمِّقُ الجذور

الغُصنُ الذي يتنفس

سوف أُطهّرهُ

أنت الآن طاهرٌ بالكلمةِ التي خاطبتكَ بها

ولهذا عليكَ أن ترمي بوحشيَّتِكَ عنكَ

مكتوبٌ في شعلة النار هذه أنْ عليكَ الإقامةَ بالتالي فيَّ

(*) انا الكرمةُ الحقيقيّة وابي الكَرّام.

كل غصن فيَّ لا يأتي بثمرٍ ينزعه؛ وكل ما ياتي بثمرٍ ينقّبه ليأتي بثمرٍ اكثر.

أنتم الآن أنقياء بسبب الكلام الذي كلمتكم به.

اثبتوا فيَّ وانا فيكم. فكما أن الغصن لا يقدر أن يأتي بثمرٍ من ذاته، إنْ لم يثبت في الكرمة كذلك أنتم ايضاً إنْ لم تثبتوا فيَّ.

(إنجيل يوحنا: الإصحاح الخامس عشر 1-4) صفحة 176.

فالكروم المحمّلة بالعنب هي غالباً الفكرة الرئيسة في الرسم المنحوت على شواهد القبور.

وأنا على غايةِ الثقةِ بكَ

كما في هؤلاء الذين أقمتُ أنا منذ القِدَم وكما في هؤلاء الذين أحببتُهم حقّاً

إذ أنا الكَرْمةُ وأنتَ

الثَمَرة

هو الحاضرُ هنا

مَن كان جاهزاً منذ الأزل للكلمة والفِعْل

مَن شَفَتْ كلمتُه الأطرشَ ذاتَ مرّةٍ

مَن كان فِعْلُهُ مثلَ

حديدٍ أبيضَ ساخن

منذ عصورٍ وهو بانتظاري

هو انتظرَ وأنا بالتأكيد رأيتُهُ

ونزلتُ نحوه تحت خطٍّ

هذه الكرمَةِ

البيضاء

****

المسيح الشمس

لا الحياةُ ولا الموتُ لي إذ
لستُ سوى واحدٍ يقفُ في ظِّلِ
الواحدِ الذي لن يتلاشى
مع الزمن

إنَّ خوف الراهب الأسود(*)
حاضرٌ هنا
الواحدُ الذي شنقوه في الساعة السادسة على الشجرة
الواحدُ الذي يتساءلُ الجنديُّ المصعوقُ عنه وعن ما قبلَ المسيح
عندما دفنَتْ شمسُ صليبِهِ نفاياتِهم
عندما مُطَّتْ ذراعاهُ بالعرض
وعندما ماتَ
الموتُ

مع ذلك بَحَثْتَ عن الموت فيه فلم تجدْ شيئاً
لا عِظامَ لا جسدَ لا دَمَ على الإطلاق
ما وجَدّته كان خَطُّ علامةٍ
ولأنَّ هذا أسقطَ أسنانَها دونَ أن تحسّ

(*) الرهبان السود هم الدومينيكانيون: وهي رهبنة تشكلت عام 1215 لمحاربة الهرطقة الثنويّة في أوروبا، وكُنِّيَت بعصي الدوميني للسخرية. أي : كلابُ الله للصيد.

ترى الآن مِدْرَسَ حِنطتها ترى انتحابَها
بلا رأسٍ ومعتوهة و
صغيرة

لا الحياةُ ولا الموتُ لي إذ
لستُ سوى واحدٍ في ظِلِّ الواحد
الذي أرْبَكَ ودحضَ مَكْرَ الموت
الذي انعجنَ في شُعاع
الشمس

أنا لستُ سوى واحدٍ قُبضَ عليه في الخريف
بصديدِ هلاكي وقَيدي المادي
لستُ سوى واحدٍ بيديه الباحثتين
اليدين المشدودتين نحو شموخ السماء
وأراضي الراحة

****

البوابة(*)

نحن هنا لسنا سوى ضيوفٍ نقفُ ساكنين
رغم أننا يجب أن نكونَ عَبَرْنا إلى حَلَقةٍ من نور
ومَررنا أخيراً عَبْرَ بوابةٍ مستقيمة لكي
نخرجَ من هذا الجسد العاري إلى أبديّة الجسد

حين أصبحتُ في هذه الليلة المتأخرة
قالَ تعالَ إليَّ من تلقائكَ

أنا تلك البوابةُ وعندها تدخلُ فيَّ كما أعرفُ يا أنتَ
هكذا تكلَّم ولكن أين فَمُ القِفل حيث إصبعُ المفتاح الواحد الحقيقيِّ للبوابة
المؤديّةِ للدّرَج المحترق؟

تلمستُ طريقي داخل العُشب وجلوتُ جمجمتي من أجل المفتاح الواحد الأزرق
باحثاً عن ممرٍّ من خلالِ زهورِ الربيعِ التي عَبَرَت مناجلَ الموت المفتشة عن الباب
الذهبي
انحنيتُ خلالَ نَمْلٍ ومزروعاتٍ خلالَ عفونةٍ وأشياءٍ زائفةٍ أبحثُ ووجدتُ طريقي
لكنني عندما رفعتُ يدي للقفلِ مَن ذا الذي خانَ طَلَبي المُحْبَط؟

(*) «ما أضيق الباب وأكرب الطريق الذي يؤدي إلى الحياة، وقليلون هم الذين يجدونه». (إنجيل متّى، الإصحاح السابع: 14) صفحة 12 ج.

عند هذا الجانب المعتم للباب جاسَتْ ريحٌ مريضةٌ خِلْسَةً، عَوَت ريحٌ فاسدة
تخليتُ عن أختي وأخي، تخليتُ عن أبي وأمي بين الوحوش والرجال
لأبحثَ عن جوهري، عن دعامة توهجي المُبْهِر
كيف عليَّ أن أجدَ في العالم تلك الكلمة
وماذا ستكون عند عثوري عليها؟

من تلقائكَ قالَ لي
ادْخُلْ فيَّ لأنني تلك البوابةُ المتلألئةُ لكنها باقية
انتظرتُ تمدّدتُ تعفنتُ متُّ على هذه العتبة
والريح الريح الريح

إنْ كانت بوابةُ الكلمةِ ليست سوى حُلم، سوى حكاية جِنيّات
فلن أغادرَ مع ذلك هذا الباب
هنا أريدُ أن أعيشَ مرّةً أخرى
هذا الحلم
الأسمى

****

الإكليل(*)

هو الحاضرُ هنا والذي قالَ من خلال فمي
أنَّ في مساء ذاك اليوم ستختفي كُلُّ جزيرةٍ
والجبالُ لن يُعْثَر عليها
لأنَّ الساعةَ حانَت

وهو قالَ أيضاً
إنَّ التِّنينَ العظيمَ قد طُرِدَ إلى باطن الأرض
والأفعى التي ضَلَّلَت العالَمَ بأكمله بِفَكَّيها الأسودين
وبأنَّ الملائكةَ الذين ذهبوا بعددهم القليل إلى الأرض أصفياء
ووا أسفاه على ساكني الأرضَ ويا أسفاه على ساكني البحر
والوحشُ الشنيعُ فَرَدَ جناحيه وخَبَّأَ الفجرَ
إذ عرفَ أنَّه لم يبقَ له غيرُ وقتٍ قصير

(*) تُربط هذه القصيدة ذهنياً بنهاية العالم كما يقول كتاب الإنجيل في الرؤيا. (ص 40 جـ)، ويشير العنوان إلى الأكاليل التي لا تذبل والتي ستُعطى للمستقيمين الفاضلين يوم الحساب (في إنجيل الملك جيمز James تجري الترجمة بدقة أقل لكن بشاعريّة أفضل، كالتيجان المستقيمة/ الخالية من الاعوجاج.) فالفكرة الرئيسة في الرسم – الإكليل – هي الفكرة الشائعة المنحوتة على الشواهد.

• الكون الكبير the macrocosom ، الكون الصغير the microcosm: في علم وفلسفة العصور الوسطى، كان الكون الكبير هو العالم الذهني والمادي داخل الإنسان، والكون الصغير هو العالم الخارجي. ثم اعتبار النظامين كربط أو تمثيل بالتوازي (مثلاً، تسيطر مدارات الكواكب السماوية في الكون الكبير على الأوضاع الذهنيّة في الكون الصغير).

• الإنسان الكامل The Perfect Man: حسب الفيلسوف الأندلسي الصوفي محيي الدين ابن عربي، تتضمن عبارةُ «الإنسان الكامل» مفهومين اثنين: الإنسانيّة كجنسٍ بَشَري أو صورة الله. وأن هؤلاء الأفراد من البشر يتغلغل فيهم المُطْلَق تماماً وأنهم يعكسون الإله «كمرآة مصقولة».

والأوبئةُ والحروبُ والمجاعاتُ سادت وأننا قضمنا ألسنتنا من الألَم
منحنا أيدينا دمنا الدافئ وقلوبنا العارية
نتمنّى الموتَ والموتُ انفلتَ مِنّا
لأنَّ الساعةَ حانَت

لذلك انْبُذْ أباكَ وأُمّكَ، انْبُذْ أختكَ وأخاكَ
فُكّ وثاقَكَ من أرضنا هذه ولا توَفِّرْ نفسكَ مأسوراً بزهورها
اخْرُجْ من المدينة من جهة الشرق، اخْرُجْ منها من جهة الغرب
اِبْنِ مدينةً في داخلكَ، وأدِرْ رأسكَ عن المدينة
لأنَّ الساعةَ حانَت

في هذا العالم ثلاثُ سُلُطاتٍ، تَشَعُ ثلاثةَ أعمدةٍ من نور تقفُ مصطفةً
الشمسُ والقمرُ والإنسانُ الكاملُ، هي قوى الكَوْن
هو والعذراء والمختارُ في وسطهم قوى الكَوْن
مملكةُ السماءِ في داخلنا فليكُن هذا معلوماً
مملكةُ السماءِ خارجنا
فليكُن هذا معلوماً

وجميع الجُزُرِ اختفت والجبالُ لم يُعْثَرْ عليها
نجومُ السماء ظهرت قبلَنا كما ابْتُليَت النجومُ بالسقوط
ولا تَدَعْ كائناً مَن كان أن يُنْزِلَ عقوبةً جائرة
ودَعِ الفاسدَ كائناً مَن كان أن يغرقَ في فساده
ودَعِ المُبارَك كائناً مَن كان أن يشهدَ
لأنَّ الساعةَ حانَت

أنتَ يا الصّافي سوف تُجْلَد أكثر، وبالسيفِ سوف تُذْبَح
وبصوتٍ مدوٍّ سيرفعونَ صلاةَ التمجيد ساعةَ يحلّقون بعيداً في الصمتِ والألَم
لذلك خُذْ تُرْسَكَ ودِرعَكَ واضرِبْ بسيفكَ تلك الجماعة المُغيرة
دَعِ الموتَ يُميتُ الموتَ فلعلَّ الحياة الحقيقيّة الوحيدة تنهضُ
لأنَّ الساعةَ حانَت

ودَعْ عَينيْ مَن سوف يرى كائناً مَن كان غير مُغلقتين
ودَعْ أُذنيْ مَن سوف يسمع كائناً مَن كان غير مسدودتين
دَعْ عَيناً واحدةً تتجسّسُ وتتفحّصُ الشاطئَ ومنحدراته الصخريّة من حولها
دَعْ عَيناً واحدةً تبحثُ في داخله إلى أن يُعْثَر على صوته
لأنَّ الساعةَ حانَت.

****

الفارس الرابع(*)

إنهُ الوقتُ للتفكير بالوقت
ما دُمنا نتقيّأ عند تَفَسُّخ الموت ووحْلهِ المنتن
إنهُ الوقتُ للتفكير بالوقت
ما دامت المياهُ العاتيةُ تُسْرِعُ نحونا
نراها تتحطّمُ ونؤدي واجبَ احترام قوتها الواهنة
عَجَباً إنه وقتُ التفكير بالوقت
لأنَّ ريحاً ريحاً خفيفةً ريحاً تِنينيّةً
سوف تَنقَضُّ علينا هذا اليوم المشؤوم
لأنَّ الوقتَ نارٌ فدعها تُطهّرُنا، دعها تحترمُنا
عَجَبًا إنهُ الوقتُ للدخولِ في هذا الوقت
لأنه كائنٌ إنما لوقتٍ قصير
ولن يكون الوقتُ أطول

****

(*) «ولمّا فَتَحَ الختم الرابع سمعت الحيوان الرابع قائلاً هلمَّ وانظُرْ. فنظرتُ وإذا فرسٌ أخضر والجالس عليه اسمه الموت والهاوية تتبعه وأُعطيا سُلطاناً على رُبْع الأرض أن يقتلا بالسيف والجوع والموت وبوحوش الأرض» (الرؤيا: السادس: 7 - 8) صفحة 402.

bbbb[*]

1

الكلمةُ صورةُ عالَمٍ نراه ولا نراه

بعضُ الكلمات نهللُ له لكنَّ بعضها الآخر يمنحنا العار

بعضُ الكلمات يجيء ليبقى وبعضها يعلو بعيداً

لِكُلِّ الكلماتِ ألوانها وروائحها

بعضُ الكلمات له لِسان

وبعضها

كآبة

إحدى الكلمات هزيلةٌ وهَشّة

تَزِنُ أشعةَ الذهب النحيلة

رشيقة وغليظة

مثل أفعى صغيرة

ترتقي صاعدةً من حَجَرٍ جائع

عالياً نحو أجَمَة الشمس

عالياً نحو تلك

الشمس الحقيقيّة

(*) تحمل الشواهد اربعة حروف فقط. معناها غير معروف.

كلمةٌ أخرى تختالُ بصوتٍ مرتفع وبافْتِخار
عالياً نحو قمة كومة الروث
نحن نعرفُ بالتأكيد
أنها تملأُ حيّزاً
لكن لا شيء
أكثر

2

كأنما على مياهٍ هائجة بعض الكلمات يجيءُ بنعومة وبنعومةٍ أكبر يمضي
بعضها ينتظرُ صابراً للّحظة أن تحلم
بعضها يندفعُ طائشاً ليُطلِقَ التيّار
لأي مكان وأي يوم
لا تصبحُ الكلمةُ كلمةً
إلاّ حين يصبحُ معناها إحساساً
وربما يكونُ أعظمها
تلك الكلمة التي
لا نقولها

الكلمةُ نفسها النابعةُ من الذات
عندما تدخلُ الصدرَ
هي كلمةٌ مختلفةٌ
لمّا
تَعْبُرُ مسرعةً

كلماتٌ هي كل شيء وكلماتٌ هي لا شيء

(وحتّى تلك التي أنبسُ بها
فإنَّ غُباراً يكونُ قد هَزّها بحجابه الكثيف
وجَرَفها إلى الطريق
إلى البالوعة

والغُبارُ يسقطُ أكثر فأكثر
لأنَّ
الكلمات تُذْبِلُ وتُكْهِلُ اللحظةَ التي شكّلَت حالاتِها
وتتجاهلها
بين الغوغاء في الشارع
بين الوجوهِ العَطِشة
عند باب
معهد اللاهوت)

لكنَّ كلمةً جديدةً هي ما نحن ننتظرُ

3

أصحابُها يراكمونها مثل خليطٍ ويعرضونها للبيع
فوقَ ألواحٍ خشبيّة ثقيلة في السوق ويصنفونها كبيرةً وصغيرة
تُشترى، أكَلَتْها العِثّةُ ومبتذلَة
مثل فِراءٍ عتيق
حالما يمسسها شعاعُ الصباح الأوّل
حالما تُرى
بالعَين القويّة
للنهار

(هي كلماتٌ قليلةٌ صغيرةٌ تبدو أنها تساوي شيئاً
عندما ينجذبُ نظرُكَ إليها
بمرارتها الحادّة غير المرئيّة
تجدُ نفسكَ تتضاءل
إنْ كنتَ آخِذًا
بالتصاغُر
أو بالتطاول

غير أنَّ الكلمات الثقيلة للاّهوتيين المتعدِّدين
للكَهَنَة رؤساء صلوات المؤمنين الخاشعين
التي تتملَّقُ مراسمَ التأبين
هي مخلوقاتُ الكسولين
مخلوقاتُ
متبلِّدي التفكيرِ الرديئين
المسحوقِين)

4

الكلماتُ تتكاثرُ في كل شيء
لذلك فالكلماتُ كلّ شيء غير أنَّ كلَّ شيءٍ مربوطٌ بالكلمات

لأجلِ كلمةٍ واحدة نحنُ ننتظرُ ونُصلّي
كلمةً محددةً من مكانٍ بعيد

5

لكننا سمعنا كلمةً جديدة
لقد سمعنا حقّاً كلمةً جديدة
إنها هي لكنها تهمسُ بنبرة السماء

كلمة تتحدّثُ عن إصبع الله في صليب الشمس
عن مدينةٍ سوف تُبْنى في كل واحدٍ مِنّا
عن كَرْمٍ ومُزارع
عن كَرْمَةٍ نبيلةٍ بسيقانٍ تتجدَّلُ
لقد سمعنا كلمةً تتحدّثُ عن كَهَنَةٍ وأكاليلَ لا تبهت
عن بوابةٍ مُشْرَعَةٍ لأقدامنا المُتْعَبَة
لقد سمعنا أسرارَ الشَرِّ عن رجالٍ بعباءاتٍ من لِباد
لقد سمعنا عن السرير الدموي الذي انتثرَت عليه آثارُ الأقدام السوداء
بصليبٍ وكأس القربان، بشعلةٍ ونباح كلاب الصَّيد
لقد سمعنا كلمةً جديدة عن سيفٍ جديدٍ قاطع
عن دِرع الخَلاص المدهش
الذي احتمى من الحُرّاس الأشرار(*)
من كُتُبِ أكاذيبهم
من عيونهم غير النائمة

كلمةٌ لا تحدّثنا عَمّا نعرف
كلمةٌ تحدّثنا عن أمرٍ جديد

6

اليومَ سمعنا كلمةً جديدة
كلمةً لم يسبقْ أبداً
أن قيلَت

لقد سمعنا الكلمة عن خبزنا اليومي:
الخُبز الذي يعني الغذاء

(*) الحراس الأشرار: الرهبان الدومينيكان. انظر الهامش في قصيدة (المسيح الشمس).

الذي يحتاجه كُلُّ واحدٍ

ولكن فليكن معلوماً منذ هذا اليوم
بأننا لا نحيا بالخبزِ وحده:
أجَل دَعِ الحقيقة تُقال
عن خبزنا غير الأرضي

7

مسموعةٌ مِن قِبَلِنا في أعماق هذه البِرْكَة
خُلِقَت هذه الكلمة خالصةً
لتكون
موضعَ نقاش

8

تكلَّمَ بصوتٍ عالٍ وواثق
بصوتٍ ليس بمقدور أحَد تجاهله
عَبْرَ إدراكٍ مريحٍ ونادر
كلماتهُ جَعَلَت الغصنَ الصغيرَ الذابل يتبرعم، وأنثى الظبي تَلِد
لا أحَدَ تكلَّمَ هكذا من قبل
كُلُّ كلمةٍ قيلَت لمداواةِ
جُرْح
كان حديثُهُ ناعماً ودافئاً مثل رشاش قَطَراتِ ماءٍ مُرحبَّة
لمطَرٍ صيفيٍ في سَهْلٍ جاف
عَبْرَ الظلمة السوداء السميكة على الشاطئ
لبَحْرٍ قليل الملوحة وفي داخل الهيكل
على الطريق وعلى جَبَل الزيتون
حيثُ لا شُعاعَ ذهبيًّا منذ ذاك اليوم

لا أغنيةَ لِدِيكٍ حَذِرٍ، ولا لأيِّ جوقةٍ مرتِّلين
تملكُ في داخلها كلمةً
من أجل إيقاظ الحشود
من أجل تحرير
كينونةِ أحَد

بكلمتِه اللافحةِ لا بِرُمْحٍ أو سيف
أصبحَ هو نفسه الحاصدَ
والذُّرَة

كلماتُهُ شَقَّت مَساراً
فَتَحَت طريقاً
نحو الفجر

9

لا أحَدَ على الأرض تكلَّمَ هكذا
إذ يتلفظُ بكلماتٍ صادقةٍ وحليمة
وبعدها يتلفظُ مثل جُرْحِ سَوطٍ
وكان أن طَفَحَت المرارةُ والعَسَلُ من كأسه
لا أحَدَ مَنَحنا هذا لنرشفهُ
وبعدها يتكلَّمُ مثل جُرْحِ سَوط
كلماتُهُ دقيقةُ المعنى كفيلةٌ بأن تملأنا
بالخوف

كلماتُهُ بمرور الزمن سوف تَضْحَكُ
ثم يتحوّلُ السِلْكُ الذهبيُّ لتلك الضحكة الرائعة

للتقبيل أحياناً
وأحياناً
للقسوة

لا أحدَ على الإطلاق
تكلَّمَ مثلَ
هذا

10

بحديثي هذا أنا لم أكلِّمْكَ بأي شيء عني
كان ما قُلتُهُ هو جسدي وخُبزي
مِن آخَرَ غَيري أخذتُ تلك الكلمةَ التي نطقتُ بها
أجَل لقد قلتُ الكلمةَ وحسب
العائدةَ له التي قيلَت
من خِلالي

وها نحن الآن سمعنا كلمةً
لا تشبه أيَّ كلمةٍ قيلَت من قبل
يا لهذه البَرَكَة
ويا لهذه
المِحْنَة

إذ لا أحَدَ سبقَ على الإطلاق أنْ
تحدّثَ
هكذا

إذ من خلاله سمعنا
الكلمةَ
تحديداً

11

ها أنا أعاينُ الكلمات الحقيقيّة عن الكلمة
أجاهِدُ لأجدَ صورةً تتاخمُ كلمة إنسان
الكلمة التي تتحدّث عن كُلّ ما يشدّ من أزرنا
عن كُلّ جانبٍ منذ زمنٍ قديم
وعن كُلّ ما كان ينتظرنا
انْظُرْ ها قد كافحتُ لِنَحْتِ كلمة عن الكلمة
التي صَرَخَت وانتحَبَت
داخلنا

في النهاية لا شيء عرفتُه
لم أحزن مثقال ذَرّة
مع ذكائي
الفقير

12

(ماشياً الطريقَ الموزَّعَ بين الظلامِ والشُّعاع
ماشياً على خط علامتكَ
أُهاجَمُ بالشكِّ
والرُّعب

أعودُ للوراء من جديد
مسحُوقاً
حتّى
الجوهر)

13

وهكذا فأنا ما زلتُ غير واثقٍ
وما كلمتي الواجبةُ الموجهةُ لكَ

ما دمتُ لا أملكُ سوى B خاصتي الفقيرة
B وB
B و
B

14

(إلهي
اغْفرْ لي
لأنني وصلتُ
عائداً إلى حيث بدأتُ بقلبٍ يملؤه الأمَل)

****

المواجهة

ريحٌ في أشجار الصنوبر السوداء، مَطَرٌ في عروق الرخام
من ربيعٍ عليل إلى ربيعٍ عليل، تتبعُ الفصولُ تغيّراتها المحتومة
عَبْرَ الأيام عَبْرَ الأعوام عَبْرَ العصور نمشي خلف شمسٍ عالية عَبْرَ الغابات
وصخور سلسلة جبالٍ متجلّدة
مع ساحرة الليل فوق صدورنا مع الفجر في عيوننا نغطسُ نحو بحرٍ أزرقَ مُرٍّ
قليل الملوحة
نجتازُ المصائدَ المُغويَة للبشائر في الفضاءات في مستنقع الأرض الدافئ في
شُعلة الخُبز
الصفراء
نُسَمّي الأشياءَ حولنا لنشهدَ خُطانا على امتداد هذه الحافة القاطعة للوعي
إنهم منقبضون في وجه الإيمان الملتهب، إنهم نصف متحمسين حيال الودّي
نُسَمّي الأعشابَ العِطريّةَ، نطالِبُ بطيور النار، نستدرجُ وحوشَ الماضي
وبهذا الإيمان نحدّقُ في وجوه الرجال، نحدّقُ بهم بصرامةٍ وثقة
نُصَلّي للفضاءات اللانهائيّة ونوقظُ الأراضي من نشواتها الجامدة
نسبحُ من دون أن نُرى عَبْرَ التيّار المتفجّر لجميع أيام أمسنا
في عُبوديّةِ عدم اليقين نتوهُ عَبْرَ يومنا القصير
نسألُ الحكماء غير الواثقين عَمّا سيحدثُ غداً
وهكذا ننادي وجودَنا الحقيقي بين الغيوم على كل جانب
رغم أننا لا نعرفُ سوى هذه الأوراق الذهبيّة الطالعة في الأحلام

نبحثُ عن الزمن لكنَّ الزمن لا يعرفنا كما يبدو
الزمنُ لا يلحظُ نفسَهُ في الأعماق التي لا تُسْبَر
في هياج عالَم الأصوات يبقى الصمتُ هو المسيطر
لذلك مع وردة الصمت هذه فلنَمضِ في طريقنا
مدركين أنَّ هذا الصمت القديم سيُصْمِتُنا نحن أيضاً
يسحقنا في النهاية على غصننا الأخضر يجلدنا ويقذفُ بنا بعنف
يتعقّبنا داخل هذه العِظام ويسوّينا بالأرضِ تحت هذه الأحجار
وعندما نعرفُ لن نَصِلَ أبداً إلى أملنا إلى حِصننا
عندها سوف نستسلمُ بصبرٍ لأسى العناق اللذيذ
عندها لا تَدَعْ صوتاً يُسْمَعُ في ذلك السكونِ القديم
فقط دَعْ ناقوسَ الصّمت ذاك يعلو في داخلي
صافيًا مع نارٍ عتيقة ثقيلاً مع معنىً جديد
كالريحِ عَبْرَ أشجار الصنوبر السوداء المتعَبَة
كالمطرِ الذي يُمْطِرُ عَبْرَ عروق رخام الموت
عَبْرَ سمواتٍ تُشْرَعُ أمام عيوننا
دعها تقرعُ بعيداً وعالياً
كما هي النجوم

****

نَصٌّ عن اللاتغيير(*)

حيثما تكون الترانيمُ المقدَّسَة
ستكون هناكَ لَعَناتٌ أيضاً

****

(*) كان شَمّاس الكنيسة المدعو درابزيلاف بوليتش Drazelav Bojlc كاتباً لدى ستيفن تفرتشكو Stephen Tvrcko، وبعده لدى بان Ban، ثم لدى ملك البوسنة فيما بعد. في الأوّل من حزيران عام 1307 كتب يقول: «الأرضُ هي أمي، وميراثي هو القبر. فمن التراب نأتي وإلى التراب نعود».

حقل الفُوَّة(*)

كَنّا ننتظرُ وقتاً طويلاً وقتاً أدركنا كم كان طويلاً

كان للبعض أيدٍ خاوية والبعضُ لم يعرفْ كيف يرمي بها

كُلُّ واحدٍ استدارَ للشمس الواحدة لكن كُلُّ واحدٍ بإيمانٍ مختلف

نَما البعضُ حيث لم يُبْذَر

تَبَرْعَمَ البعضُ بشجاعةٍ لكن لم يعثر أبداً على استحسانٍ مع نفسه

تراهم يترنحون كالسّكارى من آمالٍ قديمة إلى أخطاءٍ فادحة جديدة

البعضُ هَيّأَ سَفّودَهُ قبل الإمساك بأرنبهِ

البعضُ كان جائعاً لكنَّ الغُصنَ كان عالياً جداً

ونحنُ أعطيناكَ طيراً في اليد من كل قلوبنا

نِلْنا غرباناً سُودًا فوق الدماغ ولتغطية الوَجَع

لم نكن نحنُ مَن تركناهم داخلَ الطَوق بمرور الزمن بمرور السنين التي هاجمتنا

كان هنالكَ دائماً زَمَنٌ لم يَخُنّا

دُسنا على شِراك الخراب نحو عَهْدٍ قديم العَهْد

(*) الفُوَّة: (Madderfield) نبات صِبغي. جذر الفُوَّة كان يُستعمَل في الصباغة، لونه أحمر متراوح ما بين المعتدل والقاني. (المورد).

• بروتننيتسه Brotnjice مادرفيلدز، موقع لمقبرة صغيرة مزينة بتَرَفٍ وثَراءٍ لا مثيل لهما.

• إنَّ السحر أو الرقية ذات الأسطر الثلاثة وهي (ملعونة هي جميع الشياطين ..) والتي تأتي من «الصلاة ضد عواصف الرعد وخراب البَرَد»، كُتِبَت في نهاية القرن الخامس عشر. يشير نصّ هذه الصلاة إلى أن مستخدميها، بالرغم من أنهم اهتدوا إلى الإسلام واتخذوا أسماءً إسلاميّة، إلاّ انهم ما زالوا متمسكين بمعتقداتهم التقليديّة.

• رشاش الماء: بَدَلاً من المعموديّة بالماء، قام الكريستيانيون (المسيحيون) بـ «معموديّة روحيّة»، حيث يوضع الإنجيل على رأس المؤمن.

ذاكَ المخبوء أمامنا بكل تأكيد بكل ضراوة
ما زِلنا فـي يومٍ طيّب في كل يومٍ طيّب حتّى ذلك اليوم الطيّب
اجتازت أشواكُ الزمن الماضي والساحراتُ العَرَّافاتَ والساحرات
أيدينا ما زالت هنا لكننا لم نزل غيرَ محتضنين لأيدي بعضنا
لم نزل غيرَ متحررين من شعوذاتهنَّ
إذ لم نزلَ غيرَ عاثرين على الرعاية الروحيّة
سوى هذا المعتقَد القديم
سوى هذه الشتيمة هذه الصلاة
سوى من نهرٍ إلى نهر
من (درينا) إلى (أوكرينا) و(سافا) من (أونا) و(سانا) إلى (راما) و(نيرتيفا)
ملعونون بكل الشياطين ومُساقون بالرياح الجالبة للقَحْط
بكل قوى السماء بأوريال برفاييل بإيميل ملعونون نحن
لا نأتي إلى هذه الناحية حيث يمكن لستانس أن يكون قد غزا (؟)
لا نملكُ رعايةً روحيّة وإنما هذه الشتيمة هذه الصلاة
لكنهم اكتشفوا أنَّ صلاتنا ليست صلاة، وشتيمتَنا ليست شتيمة
رغم هذا قاتلنا الشيطانَ قتالاً قاسياً مريراً وجميعَ أعوانه
لتحرير مكتسباته المسحورة وملكياته
شققنا طريقنا عَبْرَ النجوم العظيمة المرتقية جانبَ ضوء القمر
بين وكلاء الإقطاعيات والإقطاعيين إلى جانب حُجّاب المحكمة وعُمداء البلدات والبَكَوات
عَبْرَ الفجوات والتشنجات عَبْرَ أغصانٍ مجنونة وأيام الأمس
عَبْرَ جميع أيام الغد عَبْرَ جميع أحزاننا عَبْرَ الجِراح المشقوقة
مع طائرٍ في اليد ليس طائرَنا مع غربانٍ فوق عقولنا
قُلْ لنا أهي هناك؟ قُلْ لنا متى كانت حينذاك؟ قُلْ لنا إنْ كانت ستبقى للأبد؟
حينما نُمْسِكُ بأرنبنا فإنه في القمر فوق هنا لن تكون أبداً
نُهاجَم بالزمنِ الذي يلِجُ داخلنا مع أننا بمرور الزمن لن يدوم أحد

مَن بإمكانه أن يتذكّرَ زمناً لم يَخُنّا
أمضينا كل يومٍ طيّب أياماً طيّبة نحو يومٍ طيّب كيفَ أنتَ؟ أينَ كُنتَ؟
وجميع هذه الشتائم تركتنا مرضى لم نتلقَّ رعايةً روحيّة وإنما هذه الخديعة الساحرة
هذا اللفظ الجهنمي هذه الصلاة التي تَلَوْنا
وهذه الشتيمة على الملعونين من أيدٍ ملعونة كثيرة
كل الشياطين لُعِنوا من قِبَل (أنكلياش) و(أكوميراش) و(سيرنيكاش)
لا تأتي إلى هذه الأراضي
لكنني أنا صوتُهُ هو الصارخ في البراري
لم أكن صيّادَ سَمَكٍ ولا نَجّاراً ولا ماشيًا على الماء
لم آكل من صليب الخشب لم أعتمد بالماء
رجائي إصبعٌ في عمود ضوء
ضيائي يضيء في ذاك الأمل
بهذا الإيمان أحفظُ إيماني
هذا الإيمان الذي بلا اسم
إنه في اليوم الطيّب أرغبُ أن أقول
كيفَ أنتَ وأين؟ وإنْ كُنتَ أنتَ
أجَل لقد سمعت ذلك
لقد أخبرته أيضاً
لكنه لا يملكُ آذاناً
وها يجلسُ هناكَ كأصمٍّ كجيشٍ في معسكر
لقد انتزعوا أُذُنيه لأنه سمعَ
كُلَّ وجوه الكلمة
وإنه لا يملكُ لِساناً ليُبقينا بعيدين عن النوم
العدالةُ في محكمته حَكَمَتْ بأن يُشَقَّ من فَكّيهِ
لكن هنالك عدالةٌ وراء تلك العدالة وحُكْمٌ وراء قانونه غير العادل

وإنه ليومٌ سيجيء لا بُدَّ
وحتّى ذلك اليوم حين لن يكون ليل
لعلَّ جِراحَ العصور تنتحبُ من أجل ذلك اليوم، لعلَّ أنهارَ الحُبِّ المَغيظ تجري عميقاً
عَبْرَ الضباب والظلام المتكاثف أبداً، عَلَّ السيوفَ المقدّسةَ تخترق المزيد
لعلَّ جميعَ الأشرار والجميلين، لعلّ جميع المُصابين بالسفلس والأنقياء
يتقاسمون هذا النبيذ حتّى الثمالة يتقاسمون هذا الخُبز حتّى كِسْرته الأخيرة
والقَتَلَة والقَتْلى يتقاسمون قبورهم المتآخية
إذ يجب أن تُسْمَع هذه الأغنية حتّى آخر كلمة
أو سيكون الفسادُ خبزنا اليومي
بينما نحنُ نعيشُ وبينما نحنُ نموت
ولعلّ لا يُحْكَم علينا من وجوهنا المتجهمة
على درب أن نُحِبَّ مَشينا مُتْعَبين
عَبْرَ عواصف ثلجيّة عاتية واندفعنا عَبْرَ زهرات النبات والعُلّيق والكَرمة
لذلك تغذّت بعض الطيور على هذه الوليمة الهائلة، تعالَي كُلِي عناقيدَ الحَجَر هذه تعالَيْ أسراباً
عَبْرَ الصقيع الرماديِّ الجارحِ عَبْرَ مغالق الكروم الرماديّة
بين شتيمتي وصلاتي
تعالَيْ يا طيورَ الربيع
تعالَيْ يا طيورَ الهواء
تعالَيْ وانْقَضّي
ازدرادٌ قليل
وقواقٌ شمعةٍ ذابلة
مهاجرة ومُقيمة
المُغنّي والأبكم
الحَجَل بحلَمَةٍ زرقاء والسُّماني

دَعْ ذراعيَّ تحتضنها
دَعْ رموشي تتعلق بها
دَعْها تدخل ذاكرتي
عَبْرَ مُريديَّ
عَبْرَ ارتفاع هذه الموجة
عَبْرَ هذا اللفظ
الذي أحبكهُ
فالآن
توقفنا للمرة الأولى
على طريقنا
عارفينَ بأنه وقت النظر إلى الوقت في عينيه
وقت الاعتراف بأننا انتظرنا في الفراغ عَبَثاً لكلمةٍ وعملنا للقياها
(وليكُنْ أن يُقال في النهاية بالنبرة الصحيحة في أصواتنا
بأنه إذا لم يرتفع صراخنا إلى أعماق السموات
فعلى الأقلّ فإنَّ زعيقنا
كان محفوظاً)

أنتَ سألتني يا أخي، أنتَ سألتني يا شقيق الدم
أي أكاذيب تحتجب بين نباتات حقل الفُوَّة؟

أنتَ استمعتَ لكلماتي
وأنا قُلتُ لكَ كل ما أعرف
إنْ كنتَ تريد المزيد
اذهبْ واسألْ
الطيور

****

عُرْس

مع موتي ماتَ عالمي
ظُلماتٌ سحيقة القِدَم
احتلَّت
عَينَيَّ
الفارغتين

مع موتي ماتَ عالمي
لكنَّ عالَم العالَم
لن يُدْفَع
جانباً

شَريطُ الذاكرة الأبيض
يخرقُ دِرْعَ الظلمة
بين حالاتِ صمتِ
القَدَر

وعَبْرَ هذا الوجَع الغريب
ثمّة عَينٌ جديدة
عميقةٌ
تولد

وعند أُفقي أرى الفجرَ
يبزغُ مِن
لا شيءَ
مِن جديد

هنالك ظُهْرٌ ذهبيٌ مُعَتَّقٌ حتّى الجوهر
ومساءٌ من كَدْحٍ
فوق أكتافٍ
كادحة

مع موتي ماتَ عالَمي
لكنه لن يقف ثابتاً
لأنَّ يديَّ
ثابتتان

حتّى الحَجَر لا يبدو
حَجَريّاً

تحتَ الزُرقةِ تحتَ العُلو
والفضاء الحريري الناعم
لبودفيسوكي
فإنَّ شيء الملك
يتكاثر

وأنا بلا يدين
وأنا بلا أيام

وأنا بلا عَينين

وأنا بلا أي

أجنحة

ووسط كل الألم

حلمتُ مرّةً أخرى بحوريّة

تلك الغابة

وجميع رغائبي

احتشَدَت من جديد

ومن جديد تَنَفَّستْ مثل أفعى غاضبة

حولَ

عُنُقي

مع موتي ماتَ عالَمي

لكن حتّى في قلبه

فإنَّ الموت ليس عاقراً

أو عارياً

عندما يَطرَى القمحُ الأخضر والحِنطةُ الخضراء تَصْفَرّ

فإنها تتوقُ لأن تُحْصَد

من الفتيات

من أجل الكتائب الشجاعة

من أجل شجعان المعارك

من أجل أحبّائهم

الشجعان

من أجل طُرُقات البوسنة العطشى
لأنّ ها هذه السنونوات تَنْقَضّ

عَبْرَ جميع أنهارها من (لاسفا) عذب المياه
مروراً (براما) و(نيرتفا)
إلى (لاستفا) المبتلِع
فوق (لاستوفو) الأزرق
وجُزُر السُّنونو الصغيرة

هي طيورُ الحجر هذه الطيورُ وحدها هنا
تحتفظ للأبد
عَبْرَ اللبلاب الزاحف
تحتفظُ بإيمان
بالدفء
لقفّازٍ
مكسوٍّ بالطحالب

مع موتي ماتَ عالَمي
لكنَّ زهور العالَم
موجودة هنا والآن
على كل جانب

على أجنحة الدخان
على حلقات

الشمس

بين نباتات الشمس
تتبرعمُ و
تُزْهِر

في مكانٍ ما بين الضِفاف
تسيلُ المياهُ رقراقةً
تُصلّي
للمطر

في مكانٍ ما بين أوراق النوم
الغابات الحالمة
تتمايل
في رقصة الكولو

عَبْرَ رَجْفَةٍ من ضوء قَمَرٍ متأخر
يغوونكَ أن تتبعَهم
لتتوه عن الطريق
من جديد

السجناء لا يزالون يتنفسون الهواءَ النحيل
للأمل
مثل ندىً بارد
يسقطُ على أقدامهم
العارية

أحدهم يركضُ عَبْرَ مدينته بحثاً عن نفسه
لكنه في النهاية
يُتْرَكُ محروماً
من مدينته الوحيدة

أنا ميت
ميت

لكن مع موتي
فإنَّ العالَم
لم
يمت

مرّةً ثانية الومضةُ
في عَينٍ
تتغذّى
للأبد

في عَينٍ طريّةٍ أخرى
فإنَّ الحلمَ
ليس سوى بدايةٍ
للتّوهجِ

وفوق استقبال الملك الصباحي العالي
فوق الأجوبة الرافضة

فوق القبور
وفوق
أحجارها

فوق العِظام
التي تتّقِد
في الظلام

مثل أضواءٍ ناصعةٍ دائمة
عاليةٍ وواطئة
فإنَّ طقوس الزواج
مُتْقَنَة

****

موت

الأرضُ مزروعةٌ ببذارٍ مميتة
لكنَّ الموت ليس خاتمةَ الموتِ حقاً
ليس كذلك ولا خاتمة له لأنَّ الموت مجرّدُ مَعبرٍ
للصعودِ من الوَكْرِ إلى السموات بالنِغْمَة

****

كلمة عن الأرض
نَصٌّ عن نَصٍّ

وحين رأينا هذا النصّ الذي لم نرهُ من قبل
أمام عيوننا مباشرةً والعائد لأزمانٍ سحيقة
كان أن
سقطَ صمتٌ طويلٌ
بيننا

انكسرَ هذا السكون بصوتٍ كان هادئاً لكنه صريح:
ليس من كاتبٍ كتبَ هذا النصّ بالتأكيد
يبدو وكأنَّ أحدهم
كان يحاولُ أن
يرسم

بعدها قال الثاني مُجْهِداً عقلَهُ
انظروا إلى اليمين حيث يمكن أن يبدأ
ويندفعُ بِمَرَحٍ من اليمين نحو اليسار(*)

(*) لم يتم تنفيذ العديد من النقوش البوسنيّة في العصور الوسطى من اليمين إلى اليسار في كتابة معكوسة بالمرآة وحسب؛ وإنما بتحويل النصّ الكامل في زوايا قائمة حتّى تسير الكتابة من الأعلى إلى الأسفل. اقترح بعض الباحثين أن هذا يعود إلى أن الذين قاموا بنسخ النقوش هم عُمّال حجارة أُميّون. مع ذلك هذا لا يفسّر سبب كتابة الخط كما لو كان في مرآة. السبب الحقيقي غير معروف.

مَن هذا الذي كان يكتبُ هكذا كتابة؟

ولِمَنْ؟!

أولئك الذين أصرّوا على القراءة من اليمين لليسار

على خَطأ كامل:

قال الثالث نصف مخبول

ونصف

مفتون

انظروا إنه نَصٌّ سِرّي من أظْلَم الأيام القديمة

طالعاً كما يبدو من أعماق أحلامنا المضببَة

علاماته كالكتابة

تُرى داخل مِرآة:

يغمغمُ

فَمٌ

هادئٌ

وبارد

الخامسُ بقبضتيه المُطبِقَتَين وأصابعه المرتجفة حاول أن يحملَ

مرآةَ النِغمَة الإلهيّة المُستَرَدَّة الصافيّة هذه

لكنها انزلقت

وسقطت

على الأرض

عند هذه اللحظة اكتشفَ

وجهَهُ

القديم

المنسيّ

****

بِيَدٍ ارتفعَت عالياً

بيَدٍ ارتَفَعَتْ عالياً للسماء اللانهائيَّة
للعلامات المقدّسة من حولي أقولُ اليوم
تنضفرُ كلماتي اليوميّة من القبر
التي تُوقفني في هذا الارتحال الموجِع
لتُمَجِّدَ الألمَ على الدَّرب
إليه

قِفْ
أقولُ

للشمسِ التي تحرقُ جبيني
للأرضِ التي تتشبثُ بي وتقيّدني
لليومِ وهو ينفلتُ بعيداً
للشيطان القديم بلسانه الخَفّاق

أقولُ
لشاعر الملاحم العجوز
في أي وقتٍ يزورُ يَديَّ

واللَهَبُ ما يزال ينفجرُ من جمراته المتّقدة
في أي وقتٍ يفكّرُ بي ويتذكّر

أقولُ
لكنَّ لا شيء
يقفُ
كل ما حولي يبقى كما هو
أتحركُ بطيشٍ من دون راحة
من دون النظر للوراء لِما يحدثُ ولِما يسيل

(الجميعُ يصنعُ خَزَفَهُ هناك
عند شواطئهم الصغيرة الخالية من النُّقَط)

والكلمةُ
التي قيلَت في هذه البَريَّة
تتبددُ وتَبهُتُ بكآبةٍ غير مسموعة

ووحدها صرختي
صلبةٌ كما حَجَري هذا كما هو ثابتٌ وراسخ

****

نَصٌّ عن الرؤية

أيُّ وَجْهٍ غريبٍ أرى
بُعيدَ الرؤية الرهيبة؟
وجْهُ مَن يستحضرُ ذاك الوجه
فوق عرش بطرس(*) وبولس؟
ذلك الوجه الرهيب من الجحيم:
إنهُ وجهُ الشيطان!

****

(*) كانت السلطات في الكنيسة البوسنيّة ترى أنها الوريثة الحقيقيّة للقديس بطرس وكنيسته، وأنّ بابوات روما ليسوا سوى وكلاء الشيطان.

نَصٌّ عن الخمسة(*)

أربعةُ رِجالٍ يقودونَ رَجُلاً مُقَيَّداً
رَجُلاً واحداً طاردهُ الرجالُ الأربعة

وجوهُ الرجال الأربعة صارمةٌ ورهيبة
فوقَ الماءِ فوق البرق

في سخريتهم وفي غَورهم العميق
عَبْرَ كُل خَيطٍ وعَبْرَ خبزهم

عَبْرَ كُل سياجٍ وعَبْرَ كُل حالة
إلى أن تَنْحَلَّ حُريّتُنا

مَرّوا بالبيوتِ ومَرّوا بالقبور
عَبْرَ الأرض وعَبْرَ السماء

(*) تعود القصيدة إلى الأعوام 1940–1941، في ذروة قرن الاغتصاب الأوّل للبوسنة. وتجنباً منه لمجازفة أن تُقْرأ من قِبَل المحتلين النازيين، كتبها دزدار بالخط ذي القاعدة العربيّة المدعوة الحامدية (الحميديّة Alhamiado الأجنبيّة)، وهكذا جعلها تبدو وكأنها نصّ ديني. كانت الحميديّة مستخدمة كخطوط رئيسية للّغة البوسنيّة عندما سيطرت اللغة التركيّة من أوائل القرن الخامس عشر إلى أواخر القرن التاسع عشر.
حاولت الكنيسة البوسنيّة تبسيط الخط السلافي القديم لجعله أقرب إلى اللغة البوسنيّة المحكيّة. إحدى الإصلاحات كانت شطب حرف الـ y الساكن.

أربعةُ رِجالٍ يقودونَ رَجُلاً مُقَيَّداً
رَجُلاً واحداً طاردهُ الرجالُ الأربعة

رَجُلٌ واحدٌ أوثقوا قيدَه وقادوه
رَجُلٌ واحدٌ أفْزَعَهُ الرجالُ الأربعة

****

كلمة عن الابن(*)

كنتُ سأصمتُ مثل الحَجَر

لكني لستُ من طينة الحَجَر

فاعذروا الحرفَ الذي يتحَجَّر ...

السنديان الغاضب المصعوق

يستلبُ غصنه الأخضر

يحطِّمُ يديه الملتويتين المرفوعتين عالياً

على درب السماء

والكلام المتعالي

يروي إيمانَه للنجوم

يأخذ بيديه الاثنتين

مخلِّفاً جُرحين

الجروح الهائلة غير الموجعة

توجعُ الوحيد ...

سوف يدفنُ كلَّ الأموات

ويبقى هو غراباً أسود

ما نفع الأم من الانطواء

(*) لهذه القصيدة تماثلات مدهشة لأغنية شعبيّة اسكتلنديّة مشهورة بعنوان «الغرابان The Two Corbies». لهذا السبب سألتُ براين هولتون Brian Holton، المترجم الرئيسي للشعر الصيني في بريطانيا، إنْ كان باستطاعته إعادة ترجمة مسودتي الإنكليزيّة إلى اللغة الوطنيّة الاسكتلنديّة.

في عالم بلا إحساس؟
كنتُ سأصمتُ مثل الحَجَر
لكني لستُ من طينة الحَجَر
وليكنْ هذا الحرف على الأقلّ
تاريخاً رثّاً قد تَحَجَّر

****

نَصٌّ عن الرحيل

أحيا في هذا الكون منذ أمد بعيد
قضيتُ ثمانيةً وثمانين صيفاً في صميم هذا الكون
جمعتُ الثروات الطائلة في بيتي وأخفيتها
لم أستضف أيّ عابر
ولم أُكرم وفادة الضيوف
غرستُ في هذا الكون الكثير
وحملتُ مثل النَمْل الثروةَ مثابراً
إلى بيتي
وأنا الآن أرحلُ إلى الأبديّة
لا أحملُ شيئاً معي
وتبددت الثروة بعد رحيلي.

****

نَصٌّ عن فارس

أحَبَّ الأعشابَ أحَبَّ الطيورَ أحَبَّ الغيوم
أحَبَّ السمواتِ أحَبَّ الأرضَ
أحَبَّ كُلَّ يومٍ راقصاً
مثل مُهْرٍ
يتبختر

لذلك لم يخطرِ الموتُ له أبداً
لكنَّ الموتَ كان قريباً منه
قريباً من
روحه

بسببٍ من إخلاصه
لسيدهِ
كان أن قُتِلَ
طُعِنَ وقُطِّعَ إرْباً إربا
ومُزِّقَ إلى نِصفين

في أوّل النهار
في أوّل الليل من قِتاله العظيم

لم يطالب الموتُ بذلك الفارس الشجاع

سقطَ في تَمَرُّدٍ
في انتفاضةٍ ضد عوالم الإيمانات ماتَ مُمَجَّداً
ماتَ منذ سنوات بعيدة جدًّا
ماتَ لكنه لم يزل
غيرَ ميت

الآن اسألْ عن اسمِ سيده

ذلك أنَّ مأثرته لم تكن جديرة بالثقة
واسمهُ كان شَرّاً
وفقط
عُرِفَ
اليوم

****

نيسبينا غير النائم(*)

المُراقِبُ يراقبُ عند بوابة المدينة
وفي الشرق ألفُ مُراقِبٍ ينتظرون

في النهارِ والليلِ المراقبُ لا ينام
المراقبُ يقظٌ لا يَدَعُ يقظته تُكْسَر

فوقَ الجسر والطريق يُبقي يقظتَهُ تراقِب
المراقِبُ لم يضحكْ أبداً لم ينتحبْ

على المدينة والقرية، يتجسسُ المراقِبُ اليقظ
أجَل يتجسسُ على الجميع إنما يرى نفسَهُ ويحكمُ عليها

المراقِبُ يراقبُ كُلَّ ما نلمسهُ في الليل
وفي النهار يراقبُ المراقِبُ ما نسمعُهُ ونراه

نظرة واحدة ولسوف يراكَ المراقِبُ الأسودُ مسجوناً
كلمة طيّبة وفوقَ رؤوس رِماحهم تُخَوزَق

(*) الشاهد/ بلاطة الضريح لجامع الضرائب نيسبينا (يعني الاسم غير النائم/ الصاحي دائماً) موجود في متحف سراييفو الوطني.

المراقِبُ يراقبُ عند بوابة المدينة
وفي الشرق ألفُ مُراقِبٍ ينتظرون

عَينُ المراقِبِ الذابلة عَينٌ يقظة عَينٌ يقظة

وويلتاه وويلتاه وويلتاه
أجَل وإذا ما استيقظَ المراقبون
فإنَّ (نيسبينا) الملعون لن يُتاحَ له أن ينام

****

كوسّارا

عندما صادها الصيّادون عَبْرَ أَجَمَةِ الشوك
بيديَّ بنيتُ لها جسراً لتعبرَ

رغم أنهم قادوها للأمام عَبْرَ كُلِّ مجرىً طينيّ
فإنها ترتسمُ غريبةً أكثر مما يبدو

الآن تحت السيف وضعوا رأسها نقيّاً للغاية
في داخلكِ أنتِ طويلةٌ في داخلي أنتِ قويةٌ وواثقة

ما زلتِ غير مكتئبة رغم أنكِ ما عُدتِ كائنة
وها في السماءِ نجمتها

تَشِّعُ كأَثَرِ جُرْحٍ قُرمُزيّ

****

غورتشين

هنا يستلقي
الجنديُّ غورتشين
في أرضهِ
في دُنيا
غرباء

كنتُ أُبْحِرُ نحو الريح
أحملُ الموتَ
في النهار والليل

أنا لا أؤذي ذبابةً
مع هذا ذهبتُ
لأكونَ جنديّاً

قاتلتُ
في الحروب قتالاً كاملاً
من غير تُرْسٍ أو دِرْع
مع أنَّ أذى ذلك
ربما يقود

للموت

عانيتُ من مَرَضٍ غريب
لا رُمْحَ طعنني
لا سَهْم انغرزَ بي
لا سيف
ضربني بقوة

عانيتُ من مَرَضٍ
خارج المألوف

أحببتُ
لكنَّ معشوقتي إلى العبوديّةِ
أُخِذَت

إنْ التقيتَ بكوسّارا
عند ممرات
مولانا
أخبرْها أني
أبعثُ بتحيتي وأنني
حيالَ إخلاصي
أوفيتُ بعَهْدي

****

نَصٌّ عن تُرْس(*)

لأحمي نفسي بحثتُ عن تُرْسٍ جيد

لكنني ألقيتُ به بعيداً إذ أستخدمُ الآن
التُّرْسَ الجيد

****

(*) غالباً ما يُرى الرمز الفني للتُّرس محفوراً على شواهد القبور، ومن المحتمل أن يكون معناه دينياً: «لقد جعلتُ لي تُرس خلاصكَ ويمينك تعضدني ولطفك يعظِّمني.» (المزمور الثامن عشر: 35)

نَصٌّ عن المباركة

(... وسيكون لهذا أن يراه جميع الرجال
الذين يملكون صِلَةً به...)

فَلْتُبارَكْ كُلّ حكومةٍ منحَها لنا إلهنا ومولانا العظيم
فَلْتُبارَكْ كُلّ حكومةٍ خَرَجَت بإرادة كائنٍ مَن يكون
فَلْيُبارَكْ مَليكُنا وكُلُّ سيّدٍ في أرض البوسنة هذه
فَلْيُبارَكْ والدُ المليكِ ومَليكتنا الأُم العزيزة
فَلْيُبارَكْ نَسْلُهُ المَلَكي وكُلُّ أخٍ مَلَكي
فَلْيُبارَكْ إخوةُ المليك بالدم وكتائبهم الأخويّة
أميرنا (بالاتين) الذي أدارَ أمورَ بلاط مليكنا ومولانا المبارَك
و(فويفود) البوسني العظيم للحروب العظيمة والصغيرة التي خاضها
فَلْيُبارَك مديرُ الأموال (فيسكال) وقائد الحَرَس المَلَكي
ورئيسُ العشيرة والقهرمانُ رفيعُ الشأنِ وكُلُّ صاحبِ أطيانٍ نبيل
كُلُّ أميرٍ كُلُّ دوقٍ كُلُّ كبيرِ موظفي التشريفات المَلَكيّة
كُلُّ مأمورِ حاكمٍ ومساعديه
كُلُّ رَجُلِ ضرائبٍ وجابي ضرائب كُلُّ وكيلِ مزرعةٍ كُلُّ سيّدٍ للصيد
وكُلُّ زعيمٍ بَدَويٍّ فَلْيُبارَكْ قبل الجميع

فَلْيُبارَكْ كلُّ أسيادنا الطُفَيليين عُظَماءً وصِغاراً

فَلْتُبارَكْ شقيقاتُهم

عَمّاتُهم وزوجاتُهم

فَلْتُبارَكْ سُلالاتُهم صبياناً وبَناتاً معاً

فَلْتُبارَكْ نسيباتُهم وأنسباؤهم

وفَلْيُبارَكْ رِجالُ عشائرهم أيضاً

فَلْيُبارَكْ أصحابُ وصاحبات الأراضي

فَلْيُبارَكْ كِبارُنا وأغنانا أقولُ مهما كان عددُهم

وفَلْيُبارَكِ الكاتبُ الذي خَطَّ كُلّ مرسومٍ مبارك

فَلْيُبارَكْ إخوتهُ في العَمَل

وكُلُّ مسؤولٍ في المقاطعة

ومن مائدة التبريكاتِ العالية هذه لعلَّ بعض الكِسْرات تتبقى لي –

وبذلك ربما أُبارَكُ أنا إلى جانب بقية رؤسائنا والمرافقين

وعَلَّ جميع هذه التبريكات يصيرُ تشاركُها

بعُنْفٍ

وبَراعة

****

نَصٌّ عن الأمل(*)

ولقد كُتِبَ هنا
عَلَّ السّجين المرفوض التماسَه

أن يكونَ السّجين الأخير
المَنسيّ أمله

****

(*) جدار سجن الخازن / أمين الصندوق في موستار Mostar حمل حتى الوقت القريب الرسالة التالية «كان فرسان كوساريتش Versan Kosaric هنا، سجينٌ لا يبتهج ...»، حيث الجملة مقطوعة.

المحارب بلا رغبة

عاشَ هذا الرأس العجوز عَابراً حروباً كثيرة
من مرتفعات الشمال إلى شاطئ بحر الجنوب

والمجدُ كَلَّلهُ في كل مكان
إلى البوق ودويِّ الموسيقى الحربيّة

في معركةٍ واحدة أُصِبْتُ بجُرحين
لكنهم عالجوا جروحي بعُصارةِ الورد

إلى أن فقدتُ يدي اليُمنى في معركةٍ أخيرة
فتلاشت جميعُ أمجادي والإطراءات عَليَّ في أيامٍ دمويّة

المجدُ كالسَّديمِ الذي يرتفع للسموات
المجدُ كالقَشَّةِ التي تتوهجُ عالياً ثم تخبو

أن يُعادَ لي النزرُ اليسير من التقدير، لَأمرٌ ليس جديداً على الأرض
أن أُتْرَكَ وحيداً على طريقٍ خالٍ لمكافأةٍ تافهة

رِفاقي يهمسونُ قائلين إن حياتي كانت بلا قيمة

هُم لا يعرفون أنّ جِراحي ما زالت تتصادَى

ولا يعرفونَ أني سأوزِّعُ لُهَاثي الأخير
على هذا القدر المشؤوم ودروبه المعروفة

لي وحدي

****

بيتٌ في ميليه(*)

بيتُ جَدِّنا بُنيَ ليبقى
لذلك فإنَّ قوته ستدومُ طويلاً
في
قلوبنا

لذلك دَعْ أبوابه تبقى مفتوحةً على عرضها
لتُرَحِّبَ بالضيوفِ والعابرين
وجميعِ أصحابِ القلوبِ
الكبيرة

لجميعِ الناس الطيبين تحت السماء
وجميعِ الذين يعيشون في أرض
البوسنة

لجميع المحارِبينَ في الحرب الرائعة
المحارَبين الآن
بسبب
الحرب

(*) Mile في العصور الوسطى (تُلفَظ نيليه) كرسي كبير أساقفة الكنيسة البوسنيّة. أنا ستيفن تفرتكو Stephen Tvrtko تُوِج ملكاً للبوسنة هناك عام 1353. وتحت حكمه الذي دام حتّى عام 1391، أصبحت البوسنة أقوى دولة في بلاد البلقان الغربيّة – لتتفوق عليها في نهاية الأمر السلطنة التركيّة العثمانيّة بعد معركة كوسوفو الحاسمة المشؤومة عام 1389هـ.

بسبب جميع الكوارث الأخرى وجميع
الأوغاد الآخرين
كبيرهم و
صغيرهم

بسبب جميع مَن فَرَّ في الحياة
من البيوت التي كانت
لتدفأ
لتبقى

من الدائرة العريضة والناريّة
حيث الخوازيقُ المتوهجة
لا تزال
مَرميّةً

من المشانق المزدوجة للأوبئة
وارتفاع المشنوق عند
تقاطُع الأشجار

لجميع مَن أُحْرِقوا
لأنهم اشتاقوا
لِشَمسٍ كانت كبيرة
وبعيدة جداً

لجميع مَن قالوا

الكلمةَ الصحيحة في الوقت
الصحيح

حتّى وإنْ على الطريق المؤدي
إلى النهاية الدمويّة
واليدِ القاسية

بسبب الكلمة بأنَّ الخُبز هو الخُبز
والنبيذ هو النبيذ
والماء
ماء

لجميع مَن حفروا عَجَلَةَ
الوسمِ الحديدي
فوقَ وجوههم
الصّافية

لجميع الذين ناشدوا
لا قانونَ واضعي القانون فحسب
ولكن كذلك قانونَ
آلهة
الرحمة

لجميع مَن تعرَّضَ لسانهم الوحيد
للخَلْعِ من فكوكهم
حين لم يخونوا

كلمتهم
المُعطاة

لجميع مَن حُوكموا بغير عَدْلٍ وماتوا
مربوطين بذيول الخيول
بين الانتحابين الأسودين
للفارسين
الأسودَين

لذلك دَعْ بيتَ جدِّنا
يبقى مفتوحاً
على عرضه

لجميع الذين لُعِنوا بالمراقبة الرهيبة
بواسطة (بروفنس) و(لومباردي)
بواسطة زادار
وبواسطة
(أركادي)

لُعِنوا في سديم البُخُورِ الصَّاعد
لُعِنوا في مجالس الحملات الصليبيّة
بِصُلبانٍ و
سيوف

لُعِنوا في اللازمة المريرة لقصيدة
(كوزماس) و

(داميان)

لجميع الذين لُعِنوا مرتين ومَرّةً أُخرى
لأنهم ما كانوا ليكونوا
الطحينَ
لطاحونتهم

دَعْ بيتَ جدّنا الكبير
يبقى مفتوحاً
دائماً

لجميع الذين لا يبالون
بالقياصرة
القدماء
أو الجُدُد

لجميع الذين لا يلتفتونَ
للملوكِ المتسيِّدين أو
للنبلاء

لجميع الذين لا يحتاجون
ثرواتِهم المجهولة
ذهبَهم الشرير
عملاتِهم الذهبيّة
ودنانيرَهم

دعهُ يبقى مفتوحاً لجميع الذين رفضوا
أن يدفعوا مستحقاتِهم والذين أساؤوا
لأولئكَ الذين يجمعون
الرَيْعَ للحكومة

إنما اتُّهمهم بوضوح
ووَبِّخهم بقسوة

دَعْ بابَ بيت جدّنا يبقى
مفتوحاً على عرضه

لجميع مَن في بلاط أورديال
قد سمعوا كلمةً
لطيفةً و
صافية

كلمة مُنِحَت بالتساوي
لغُرباء في أراضٍ بعيدة
ولأولئكَ المتحلقين حول حواشينا
القريبين
من اليد

لجميع الفقراء الذين ما اشتهوا شيئاً في الحياة
رغم أنَّ الحياةَ سَخِرتْ منهم
من البداية
إلى النهاية

دَعْهُ يبقى مفتوحاً للأخِ المجهول
وللصديق
المجهول

لجميع المحكوم عليهم بظلمات زنازين السجون
لِضَجَر الأجسادِ المتخشبة
لأنها أطالت المكوث

ذلك أنَّ هذه الكلمة ينبغي أن تنتمي
للواحد و
للجميع

وأنَّ الجميعَ ينبغي أن يكونوا إخوةً في النهاية
بهذه
الكلمة

دَعْ بيتَ جدّنا
يبقى مفتوحاً على عرضه
في الليل
ومنتصف الليل

لجميع الذين ظهروا منذ زمن بعيد
وما زالوا يعانون بمَللٍ
بسبب ذلك في
العَتمة

لكنهم يعرفون بأنَّ يوماً قريباً
سيصلون مفتوحي الأعين
ليجدوا مَن ينتظرهم
هناك

لذلك دَعْ بيتَ جدّنا
يبقى مفتوحاً
على عرضه

لكن إنْ كان ثمة شخصٌ بأنانيّةِ افتخارٍ
سوف يُغلقُ بعُنْفٍ
أبوابَ قلعتِنا

دَعْ بيتَ جدّنا يرتطمُ بالأرض
ودَعْهُ يتهشّم
داخلَ
روحي

دَعْهُ يتحطّم في فوضى من السُّخام
أن يحترق حتّى الجُذواتِ العارية
والرمادِ الأسود
دَعْهُ
دَعْهُ يتحوّل
إلى عَدَمٍ
عظيم

وتماماً كسرير الشيطان
دَغْهُ يتحوّل إلى وَكْرٍ للأفاعي
وعُشٍ للعقارب

(سامحوني
على كل ما قلتُ
أيها الحالفونَ الملعونونَ
على لعنة المرتزق هذه
لكن من دون أن يُبَارَك بيتُ جدّنا
من الغرباء المُرَحَّب بهم والضيوف
فلن يكون بيتاً لي ولا لكم
ولن يكون بيتَ جدّنا بعد الآن)

****

كِفاح

كانَ في أيام الملك ستيفان الذهبيّة
أن قامَ فوكاك بتسييد ابنهِ فوتشينا
لكنَّ فوكاك عادَ من بلاد اليونان
بخمسة جروحٍ مزدوجة من خمس مشاجرات مزدوجة –
وهكذا ماتَ باحتفالٍ ملوكي
رعاها مولاهُ

كانَ ياما كان عندما حَكَمَ الملك الطيّب تفوركو هذه البلاد
سَيَّدَ فوتشينا فوتشيك ابنَهُ فوك –
ثم في احتفالٍ ملوكي برعاية مولاه
في أحد النضالات فقدَ حياتَهُ
على يد قيصرٍ هنغاري

وقام ابنُهُ فوكاك بتسييد فوكاجلو
متمنيّاً له دوام الصحة والقوة
جُرِحَ ومات
بسيفٍ تُركي
وفي احتفالٍ متواضعٍ وملوكي برعاية مولاته
في أيام الملكة الطيّبة
هيلين القاسية

تأريخٌ متسلسلٌ بتوجيهٍ من الملك أوستاجا
دُوِّنَتْ الأيامُ والليالي تلك
خيوط الحياة والموت تلك:
فوكاجلو سرعان ما سَيَّدَ فوكاس
ولكن عندما شَبَّ ابنُهُ الوحيد
طويلاً ليليقَ بسيف
في صيف الأربعمائة والخمسة عشرة من حُكْم مولانا
وعلى أيدي حُرّاسهما
ماتَ الأبُ والابنُ ككلبين ورُميا
باسمِ وجلالِ
مولاهما

وهكذا كان لِنَسَبِهما
بعدئذٍ أن يُعادَ تسجيله:
سَيَّدَ فوكاس قبل موته ابنَهُ فوكان
وفوكان سَيَّدَ فوكومان
وفوكومان بعدها –
وهكذا بالتدريج هبوطاً
حتّى الحاضر من
الزمان

كُلّ ذلك في الخدمة الملكيّة
لمولاهم

****

نَصٌّ عن الثروة

لا لأحَدٍ من الرجال قُلتُ

كيف جنيتُ ثروتي

وليكُنْ معلوماً الآن

بأنني حينذاك

في يدي الشيطان سقطتُ

وهذا مَكَّنَهُ

من خداعي بثروتي

****

زهرة التفّاح

كِسَفُ الثلجِ تسقطُ أغْلَظَ وأكثر سواداً كالخطايا
في حياةٍ تقاربُ نهايتها

لذلك هل ما زلنا نملكُ عيوناً؟
حين تضعُ شجرةُ التفّاح في الحديقةِ بالتالي زهرتَها البيضاء الأولى؟

****

الزنابق(*)

زنابق بيضاء تتفتحُ في التلَّةِ والوادي

في الغابة والحقل تبدو الزنابق وكأنها تتكّلم
في التلّةِ والوادي كُلُّ زنبقةٍ
تبدو وكأنها تحترق

وبينما تسيرُ بهدوء
بين الورود
المتبرعمة
ربما تكون مثلي تفكِّرُ بهؤلاء
الذين ساروا بهدوء هنا
قَبلَنا

بين

هذه الورودِ المتبرعمةِ بالأبيض
متسائلاً مثلي تماماً
ماذا يمكن أن يكونوا

(*) الزنبقة أو السوسنة هي زهرة البوسنة الوطنيّة، وتظهر على العَلَم مع شعار النبالة.

ألعلّها صرخاتُ

الابتهاجِ

أو الرُعب؟

علاماتُ الذين مَرّوا هنا ذات مَرّة

داسوا بقسوةٍ وصلابة

هذه الأرضَ غيرَ المطروقة

التي لنا

بحثاً عن ورودٍ بيضاء

****

كراليينا: خِتاماً(*)

ألقِ نظرةً إنها تُطلِقُ ورقاً من الحَجَر الأبيض
يطلعُ من يَدٍ قديمة وجهٌ مظلم

من الحجر تبرعمت بألَمٍ وردةٌ بيضاء ونَمَت

ومن عُشّه المخبوءِ طارَ طيرٌ للتوِّ
نحو الحلقة المتوحدة لحلم أحدهم الوامض

طيرٌ طارَ للتوِّ هابطاً من غصنهِ الأخضر

أيمكن ألاّ يكون ثمةَ أفعى في هذه النهاية النادمة
أيمكننا حقاً أن نجرؤ بوجود الوردة هناك

من دون إغواء الحَيَّة بِسُمّها أو بابتسامتها؟

من خارج الحَجَر الأبيض ألقِ نظرةً إنها تتبرعمُ
من يدٍ قديمة، وجهُ حياةٍ مظلمٌ يصرخ

من حَجَرٍ معروف ينمو رأسُ شُعلةٍ باهتة

****

(*) لكراليينا معانٍ كثيرة، من بينها النهاية، أما معناها الأكثر شيوعاً، مع ذلك، فيعني «مناطق الحدود» (بمعنى منطقة التخوم العسكريّة). شكّلت امبراطوريتا النمسا والعثمانيّة مثل هذه المناطق (منطقة كراليينا) مع حدودهما المشتركة والتي هي الآن الحدود الكرواتيّة – البوسنيّة.

نصٌّ عن بلاد(*)

في أحد الأيام سألَ سائلٌ وجيه:

سامحني مَن هو وما هو سيدي؟

أينَ؟

ومن أين؟

إلى أين؟

عفواً سيدي

هذه

البوسنة

أجابَ المسؤولُ برقةٍ بهذه الحكمة:

سامحني كان هناك يوماً يا سيدي أرضٌ سُميت البوسنة

راسخةٌ ومكسُوةٌ بالصقيع

متقرحة القدمين ووسخة

(*) بالإنكليزيّة يُقرأ نصّ جون من بانونيا Pannon كالتالي:

وجِدَ قسمٌ من إيليريا Illyria، والتي دعاها مواطنوها اليوم البوسنة،

قاسية، لكن ارضها غنيّة بما وهبت من فِضّة،

لا توجد سهول ذات حوافٍ عريضة خضراء هناك،

ولا حقول تمنح محاصيلَ ذات قيمة عالية،

إنما جبال وعرة، ناتئة مستدقة صخريّة في قمتها،

وقِلاع طويلة تجثم على قمم سلسلة الجبال.

أرضٌ وسامحني
تستيقظُ من النوم يا سيدي
ساخرةً
غير هَيّابة

****

رسالة(*)

سوفَ تجيء ذات يومٍ على رأس رَتْلٍ مُسلَّحٍ من الشَّمال
وتُدمِّرُ مدينتي وتُحيلها دبْشاً
قائلاً
لنفسكَ

ها هي الآن دُمِّرت وسُوِّيت بالأرض
ورَفَعَت
عَهْدَ
إيمانها
الكافر

لكنكَ بعد ذلك سوف تُدْهَش
لسماعكَ لي أمشي وسط
المدينة من جديد
أُطاردكَ خِلْسَةً
من جديد

وبِسرِّيَّةٍ وخُبْثٍ مثل جاسوسٍ شرقيّ
سوفَ تحرقُ بيتي حتّى تسوِّيه بالأرض

(*) تبقى القصيدة الأخيرة في «النائم الحجري» غير مكتملة عند موت دزدار.

إلى أن يسقط
بكامله

وبعدها ستقولُ هذه الكلمات المظلمة
هذا الوَكْرُ انتهى الآن
هذا الخسيس الملعون
ذُبِحَ
متألماً

لكن بمعجزةٍ ما سأبقى حالماً هنا على الأرض

وكمراقِبٍ حكيم من الشرق
مانعاً الآخرينَ من الحلمِ والتفكير
ستسكبُ
السُمَّ
في النَبْعِ

الذي منه
أشربُ

وسوفَ تضحكُ سوفَ تقهقهُ
ذلك إني
ما عُدتُ كائناً

(أنتَ لا تعرفُ شيئاً عن البلدة التي أكمنُ فيها
أنت لا فكرة لديكَ عن البيت الذي آكلُ فيه

أنتَ لا تعرفُ شيئاً

عن بئر المدينة

التي منها

أشربُ)

مُتَطَفِّلٌ من الجنوب تَنَكَّرَ كبائعٍ جَوّال

سوفَ تجرفُ كَرْمي حتّى الجذور

ليكونَ تحت قَدَمَيّ الفقيرتين

ظِلاً أقلّ

وصدوعاً

أعمق

وكُلُّ بيتٍ سوفَ يعرفُ نوباتِ

المجاعة

ومن بعيد

سأدّع ذلك يُقال

حقيقتي هذه

معصومةً

وقديمة

(أنتَ لا تعرفُ شيئاً عن العلامة

الخاصّة بالمُزارع

أو بِكَرْمِهِ

أنتَ لا تعرفُ كم تساوي مثل هذه العطايا

أجَل إنَّ إقامتي فوقَ هذه الأرض الجامدة
مُقْرِفٌ
وقصير

ولن يستغرقكَ لتدمير الظلال الحقيقيّة
سوى تقويتها
إنْ كانت
نائمةً
أو
إنْ كانت
مستيقظة

في النهايةِ أنتَ الحارسُ الأقسى
مُستجوبُ الربّ الأدقّ
مُدْمى حتّى العينين
اليائس
المسعور
بسبب المعاركِ
من العبيدِ
القتلى
والأحياء

سوفَ تحرقني أنا أعرفُ عند نهاية العَرْض

سوفَ تحرقني أنا أعرف
عند اكتشافكَ بالحدس
خازوقكَ
اللامع

الذي
باتَ
طالعاً
في
داخلكَ

ومن مشنقتكَ
المرعبةِ
الكريهة
لن
أتهرَّب

سأكونُ ثابتاً كحَجَرٍ واقف
إلى أن تنجزَ مهمتكَ
وشُعلتكَ
قد أدّت
عملها

إنَّ نهايةً كهذه سوفَ تُمَجِّد
صرختكَ الثلاثيّة
آمين
آمين
آمين

في موضعي
سوفَ تتمدّدُ الأرمدة
ومن أجلها ستتنافسُ النساء
....
لكن وبسبب هذا ومن بعدي
فوقَ أوّل رُجْم حجارةٍ
ستظّلُ رسالةٌ من ورودٍ باقيةً
في جدائل متبرعمة
من أيدٍ
طيّبة
ودامية

عندما تتحققُ الغايةُ قريباً
وفقاً لرغبتها –
سيعرفُ حينها
أنّ جسدَهُ
كان
إنما هو
بيتُ
لحظة واحدة

لذلك خُذْ جسده فقط واحفظه

لأن ذلك الجسد كان مجرد
سجنه
ونحيبه

(كَمْ مرَّةً عليَّ أن أقول لكَ بأنكَ لا تعرفُ
شيئاً عني –
لا شيء عن سهمي وقَوسي
لا شيء عن سيفي وتُرسي
إنكَ لا تملكُ فكرةً كيفَ هو قاطعٌ فولاذي
إنكَ لا تعرفُ شيئاً عن جسدي
الفقير أو
اللهب الناصع
الذي يشتعل
داخلي)

أنا أنتظركَ
لأنني أعرفُكَ
سوفَ تعود يوماً ما

(بهذا أنتَ أقْسَمْتَ
بخمرةِ كأس القربان والصليب وشفرة السيف
ثَمِلاً بتراتيلِ الخطيئةِ الميتةِ ودخانِ البُخُور)

لذلك
تعالَ إذًا

لطالما نَمَوْتُ معتاداً على تخريبكَ
كأنما هي الآلام المبرحة
لوباءٍ جاءَ من بعيد

وكمياه المدينة الجارية العابرة بوحشيّةٍ
بنهر الليل من الظلمات الذي يكبر
أكثر سلاسةً
وقويًّا
....

****

تعقيب المترجم إلى الإنكليزيّة
البحث عن النِّيام

فرانسيس ر. جونز

Francis R. Jones

إشارات

«النائم الحَجَري» لِماك دزدار ليس عملاً شعريًّا وحسب. إنه بَحثٌ روحيٌّ أيضاً، ورحلة داخل حقبة وشعب – غموض بوسنة القرون الوسطى – التي لا يتفق عليها مؤرخان. هذه رحلة لا يقومُ بها سوى باحث. شاعر، رحلة لا يجدُ طريقَه في هذه الأرض سوى الباحث، ووحده الشاعر مَن يقدر على فهم ماذا يكمن هناك. شِعر دزدار يتحدّث مباشرةً إلى القارئ. لكن إذا كان لهذا القارئ أن يُقَدِّرَ الغِنى الروحي الكامل لفضاء دزدار، عندها علينا أن نقوده عَبْرَ الممرات التي يسير فيها بصفته باحثاً.

حدّدَ الناقد روسمير مَحمتيشجيك المعنى الروحي الكوني لعلامات فضاء دزدار. غير أنَّ كثيراً من تلك العلامات المألوفة لدى القارئ البوسني، كمقابر نائمي الحَجَر المبهمة أو حتّى معتقدهم الأكثر إبهاماً، هي عجيبة وغير مألوفة بالنسبة لأي قارئ غير بوسني: لذلك كان أن أضَفْتُ ملاحظاتي النَصّيّة، على سبيل الإشارات الدالّة للمعنى الظاهر من علامات دزدار.

وكما أشار البروفسور محمتيشجيك بقوة، لم يكن ممكناً إلا مؤخراً الكشف للعموم في البوسنة عن المعنى الروحي الحقيقي لفضاء دزدار، وانصهار الرموز الإسلاميّة والمسيحيّة السّريّة في داخله. كما أننا لا نجانب الصواب إذا ما أشرنا إلى الحقيقة القائلة بأنَّ سَبْرَ دزدار للماضي القروسطي أحدَثَ أصداءً مؤلمة حديثة.

خلال الحرب العالميّة الثانيّة، وكمقاتل ضمن جيش تيتو، عاينَ من جهة الخرابَ الذي لحقَ بهؤلاء الذين قُتِلوا وحُرِقوا باسم النقاء العنصري والديني، تماماً مثلما طاردَ صَائدو المهرطقين أنجاسَ الإيمان قبل قرون. وما كان هذا ليكونَ رجوعهم الأخير، إذ إنَّ العقد الأسود الأخير عاشَ ذلك على نحوٍ مرير.

لذلك، أشعرُ بأن عَليَّ البدء بالتحدث عن رحلتي: كطالب في يوغسلافيا في عهد تيتو، يقتفي آثار نائمي الحَجَر في فضاءٍ طاردَ فيه قاتلو الهراطقة المتأخرين، مُقادين بالكراهيّة المُبهمة ذاتها الخاصّة بأسلافهم القروسطيين، وفعلوا كل ما في وسعهم حتّى الأمس القريب.

1978

كطلابٍ يفرّون من مزيج الضباب والدخان المُغَطّي لسراييفو، ترجَّلنا في القرية الصغيرة الكائنة في أحد الأودية بعد الظُهر. أسرعَ السائقُ مبتعداً عن حافة حقلٍ للذُرَة، وهبطنا درجات الحافلة ومشينا. ثمّة أشجار ليمون حامض مزهرة تماماً حول الميدان، واندفاع نهر فوقَ سَدّ.

تحت هذا مباشرةً، وعَدَتْنا (N) بمعاينة أجملَ جامعٍ في البلقان. الجامع الذي تحوّل إلى مسجدٍ صغير، أبيض، خاوٍ، بمكعباتٍ كاملةً تعلوها نصفُ كُرَةٍ كاملةٍ بيضاء(*)، وبمدخلٍ بانَ بزخارفه المتحابكة الخضراء والحمراء لكروم تتهدّلُ بقطوف عِنَبٍ ثقيلة. وفي الخارج ثمّة أشجار كستناء، بثمارٍ شائكة وخضراءٍ ومبهجة، تكسو القبور الحجريّة.

انحدرتُ مع (R)، شريكي الإنكليزيّ في السَكَن، فوق الجسر حالما تركنا المكان، ناظرين إلى سمك التروتة المُرقّط خلال الحصى. انْضَمَّت (N) إلينا. «إنه مكانٌ جميل للدَّفْن»، قلتُ ساخراً. أطلَقَت ابتسامةً سريعة، وسألَت: «هل تعرف ماذا حدث

(*) اعرف الآن ان هذا ليس عَمَلاً فَنيّاً جماليّاً عشوائيّاً: فالمكعب يرمز للأرض، ونصف الكرة للسماء، ومركز كل مكعب يلتقي بواسطة محاور غير مرئيّة، وعمود الشمس يمر عبر قلب المتعبِّد. ولأنني لم أكن أعرفُ ذلك حينذاك، فإنني لم اشعر إلاّ بالسلام.

في الحرب؟ من هنا ألقوا بالمسلمين في النهر.» «مَن فعلَ هذا؟» ، لكنها هَزَّت كتفيها استهجاناً. بعدها، انتبهنا للتوضيحات على الحجارة: العديد من الموتى قضوا في سنة واحدة، 1942.

(بعد تثبيتي لذلك بالكتابة بوقتٍ طويل، قيل لي بأنني دمجتُ سيرتين. واحدة عن كاتب زارَ في جهة الشرق جامع ألدازا Aldaza الرائعَ في فوتشا Foca، بُني حول حَجَرٍ نيزكيٍّ مقدّس، بالقرب من جسرٍ في الجوار، حيث كثيرٌ من المسلمين ذُبحوا بالسكاكين وأُلقيَ بهم في نهر درينا. جرى ذلك في الحرب العالميّة الثانية والحرب الأخرى التي سوف تجيء. والسيرة الثانية عن زيارة جرت في الربيع جهة الجنوب باتجاه ستولاتس Stolac، بالقرب من مقبرة راديميليا Radimlja؛ هناك حيث المسجد البسيط عند النهر الصغير الذي يوجد ما يبررُ أن يصبحَ مهجوراً، وخاوياً من أي شيء، محتفظاً بهندسةٍ دينيّة. وبكيفيّةٍ ما، بعد مرور سنوات، كان للمشهدين أن يعملا على صياغة نموذج واحد، مثل صورتين على شريحة أداة تجسيم الصوَر. باتَ المسجدُ الآن مكاناً ينتمي للقلب، وليس للعقل. ولهذا السبب أبقيته داخلي.)

المقبرة الكبيرة هو ما عايناه في اليوم التالي. كان الجو حارّاً، تراجعَ نسيمُ الصباح في الوقت الذي وصلنا إلى السياج السِّلْكي. في الداخل: صفوفٌ من المستطيلات الحجريّة بارتفاع أربعة أقدام داخل فوضى العشب الأصفر، البعض بسقوفٍ طُليَت بالزفت، كمنازلٍ للموتى. ليس هنالك حارس، لا زُوّار، إنما نحن فقط. فُتِحَت البوابة ودلفنا لنفترق باتجاهات مختلفة.

بالقرب من نهاية القبر الأوّل، رأيتُ كَرْمَةً مثقلَةً بثمارها. وعلى جانبها الطويل امتدَّ إفريزٌ من الأهِلَّة والصلبان، وتحته صَفٌّ من النسوة بكامل زيِّهنّ التقليدي يرقصن الكولو. ولدى استدارتي لمشاهدة النهاية الأخرى، نظرتُ أمامي لأجدني وجهاً لوجه مع رَجُلٍ، الشمسُ هي وجهه ويده العظيمة اليُمنى ترتفع نحوي بغصن غارٍ. أهو المسيح غير المصلوب، المسيح الهرطوقي؟ وعلى الحَجَر التالي، كان النائم تحت الحَجَر، عِملاقٌ مُسلّح يلوّحُ بقَوسٍ في يده اليسرى. وارتفعت يدهُ اليُمنى ثانيةً. لتفعلَ ماذا؟ ثمّة

أفعى في غلاظة معصمي. ليست تنيناً حجريّاً. انزلقت مرتبكةً على بُعد نصف متر أمامي، متجهةً نحو العشب الطويل حول القبر. استدرتُ ومشيتُ الهوينى متظاهراً بعدم تحديها عائداً للآخرين.

ارتفعَت لتفعلَ ماذا؟ لا أحد يعرف. ثمّة نظريات، بالطبع. لدفع أذى عين الشيطان. لوقف الخُطاة، أعداء المسيح الحق. أم لتحيّة الغريب. لا أحد يعرف.

الكنيسة البوسنيّة

بالتوازي مع الجَهْل بمعتقد نائمي الحَجَر، حافظت البوسنة القروسطيّة على استقلالها السياسي من أواخر القرن الثاني عشر حتّى الفتح التركي سنة 1463. بعد ذلك، ومثلما هي الآن، كانت البوسنة مكان الالتقاء لأديانٍ مختلفة. بنى الرهبان الفرنسيسكانيون أديرتهم هناك، وكذلك فعلَ الأرثوذكس وشادوا كنائسهم. أما أتباع الراهب البلغاري بوغوميل Bogomil، الذي جاء بالتعليم القائل بأنَّ الأرضَ والجسد البشري إنما خلقهما الشيطان، فلقد ارتحلوا وأقاموا داخل البلاد قادمين من الموانئ الدَّلماسيّة (دلماسيا: الجزء الغربي من يوغسلافيا). بعد ذلك، جاء الإسلام، عابراً البحر الأدرياتيكي، وهو المسار نفسه لجميع القادمين، وأسَس لنفسه حضوراً في الأودية البوسنيّة قبل عقود مِن جَعْل الفاتح التركي له ديناً للدولة.

كذلك، كان لدولة البوسنة القروسطيّة كنيستها الخاصّة. إنها هذه الكنيسة البوسنيّة المجهولة تماماً، والغامضة في قلب الماضي البوسني القروسطي. كان أتباعها، الذين أسموا أنفسهم ببساطة كريستياني (Christians المسيحيون)، قد تعرضوا مراراً وتكراراً لتهمة الهرطقة، إنْ كان ذلك من قِبَل كنائس روما والقسطنطينيّة، أو جيران البوسنة من القوى السياسيّة. لكنَّ ذلك كان بعيداً عن أن تحيط به الحقيقة. تتمثّل المشكلة في أنَّ القليل جدًّا من الوثائق عن المعتقد المكتوب من قِبَل الكريستيانيين قد نجا: تقريباً كل ما نملكه هو الدعاية الدينيّة لمحكمة تفتيش أعدائهم، حيث الحقائق الجافة عُبِّئت بالتخمينات والظُّنون، أو تمت بهرجتها والتلاعُب بها للخروج بِخُلاصة البروبوغندا.

إحدى النظريات تقول بأنَّ الكريستيانيين كانوا أتباعاً لهرطقة بوغوميل، غير أن هذه الفكرة مدعاة للتحفُّظ الآن. فالفرقة الدينيّة التي ترى كلَّ التسلسل الهَرَمي الأرضي كعملٍ من أعمال الشيطان، ليست، بأي حال، قابلة لأن تكون دين الدولة. وإذا ما كان البوغوميليون يزدرون كل ما هو أرضي، فكيف صارَ لهم التفكير بنحت رموزهم في حَجَرٍ أرضيّ؟

وعلى الجانب النقيض، يقول بعض الباحثين أنَّ الكريستيانيين كانوا في الحقيقة التيّار الرئيس في المعتقد والشعائر. وتهمة الهرطقة، كما يفسّرون، كانت ببساطة الدورة المُسَلَّم بها في أعمال التعسُّف للكنيسة والتي، مثلها مثل الدولة البوسنيّة، بدأت تشكّل استقلالاً مزعجاً بادّعائها الحكم المطلق باسم الربّ المانح. ولكن، لماذا أصبحَت الكنيسة الكاثوليكيّة تهجس طوال قرون باجتثاث مرتع الهرطقة الذي كان، في نظرها، البوسنة؟ لماذا لم يروا ببساطة في الكنيسة البوسنيّة جَماعةً مُنْشَقَّة، أسوةً بالكنائس اليونانيّة أو الصربيّة الأرثوذكسيّة؟

الحقيقة على الأغلب تكمن في المابَين. استناداً إلى باحثين بوسنيين حديثين، قامت الكنيسة البوسنيّة بالتبشير بِثَنويّة(*) معتدلة. وفي مظهرها الأكثر جذريّةً، فإنَّ الثَنويّة ترى الكونَ والروح البشريّة كميدانٍ للمعركة بين قوتين متساويتين متوازنتين: قوى الخير وقوى الشّر. ولقد اتهمَ البابا أيوجين الخامس عشر Eugene الكريستيانيين بهذه الهرطقة متذرعاً بأنهم «أقرّوا بأنَّ الشيطان Satan يساوي الله كُلّي العَظَمَة في القوة، وبما أنهم سَلّموا بمبدأين رئيسيين: وجود الشّر ووجود الخير». هذا الادّعاء إما قائمٌ على معطيات مغلوطة بما يقارب التأكيد، أو مجرد بروبوغندا. ومثل الكنائس الرئيسة، آمنَ الكريستيانيون بمبدأ رئيسي واحد؛ الله. الله الخالق. لكنهم، كما يبدو، آمنوا أيضاً بأنَّ العالَمَ دخلَ المرحلة الأخيرة الواردة في سِفْر الرؤيا الكائن في الإنجيل، عندما يُمْنَح الشيطان (Sataniel أو Satan) السلطةَ على الأرض لفترة قصيرة من الزمن.

(*) dualism الثَنَويّة: (أ) مذهب يقول بأن الكون خاضع لمبدأين متعارضين احدهما خير والآخر شر. (ب) الإيمان بأن الإنسان ذو جسد وروح. (المورد)

غير أنَّ البابا إيوجين ربما يكون محقًّا عندما كتبَ بأنَّ الكريستيانيين «اعتبروا معجزة تَجَسُّد الله مجرد وَهْم، وبناءً على ذلك فإنَّ تَجَسُّدَ ابنِ الله، وآلامه وموته وصَلْبه، لم تكن حقيقيّة، إنما هي أوهامٌ وحسب.» وعلى هذا النحو، اتهمَ في القرن الثالث عشر كاتبُ كتاب (حوار البابا غريغوري Gregory) المملكة البوسنيّة بتوفير الملاذ والحماية للهراطقة «الذين يقولون أنَّ يسوع المسيح لم يكن يملكُ جَسَداً بشريّاً وأنَّ مريّم العذراء المباركَة كانت مَلاكاً». لقد رأى الكريستيانيون، كما يبدو، المسيحَ روحاً خالصة، غير مُلَطَّخَة بأي شيء أرضي. ولقد أُرْسِلَ إلى الأرض ليكشفَ للمؤمنين الحقيقيين طريق العودة إلى الله؛ لكن في اللحظة التي قبِلَت فيها رسالته، فَرَدَ ذراعيه وأظْهَرَ وجوده الحقيقي، صاعداً إلى السماء على هيئة عمود من النور الخالص. مع ذلك كانت دعوة الشيطان أقوى، مع ذلك البعض القليل مَن أدارَ ظهره عن ظلاميته وانتبه لنور المسيح غير المصلوب، وأن النهاية باتت قريبة. وفي يوم قريب، سيعودُ المسيح بالمجد، ويدمِّر كُليّاً أعمالَ الشيطان، ويقود أرواح المختارين، القِلَّة، نحو أورشليم الجديدة، مدينة السلام.

بصرف النظر عن حقائق معتقد الكريستيانيين، فلقد رأت السلطات الكاثوليكيّة والأرثوذكسيّة فيه هرطقةً تمِسُّ مفهومَ الإنسان كروحٍ وجَسَد. وهذا المفهوم، المنادي بأنَّ حُكّام الفلاحين المطلقين كانوا في الحقيقة أتباع الشيطان، إنما هُم خطرون للغاية سياسيًّا، وينبغي سحقهم أينما ظهروا. سحقهم من خلال البروبوغندا والحملات التبشيريّة. أو، إذا لم تنجح تلك الوسائل؛ من خلال حملات صليبيّة وفَّرت المبرر الأخلاقي لخيار: إما الهداية القسريّة، أو الذبح. وليس ثمة حاجة للقول بأنَّ جيوش جيران البوسنة، إذ يرون في حملة مطاردة واصطياد الهراطقة مبرراً مقنعاً لاغتصاب الأراضي، هُم سعداء بتقديم خدماتهم هنا. ومع ذلك، نَجَت الكنيسة البوسنيّة تقريباً طوال زمن الدولة البوسنيّة. غير أنَّ العَصْفَ الأخير جاء سنة 1450، حينما باتت خارجة على القانون بعد أن غَيَّرَ الملك البوسني ستيفن توماس Stefen Tomas معتقد الدولة كمقايضة مع البابا لِقاء وعدٍ منه بإمداده بنجدة عسكريّة ضد التهديد التركي المتنامي.

لكن لم يتم الوفاء بهذا الوعد. عندما فتحَ أخيراً العثمانيون الأتراك البوسنة سنة 1463، لَجَأت الكنيسة البوسنيّة للعمل تحت الأرض، دون أن تترك وراءها أيَّ وثائق للبحث في كيفيّة نجاتها مع الحُكّام الجُدد. وبينما ذَوَتْ الكنيسة البوسنيّة داخل الذاكرة الشعبيّة، أخذَ الدين الجديد يشق سبيله بقوة. وبالعموم، تحوَّلَ معظم البوسنيين للإسلام.

1993

مع ذلك، ينبغي لكلِّ دولةٍ أن تتفتت وتتقوَّض لتكونَ تراباً إذ من التراب تشكَّلَت. لم يعد للإمبراطوريّة العثمانيّة وجود، والمبدأ البراغماتي الداعي لأنْ (عِشْ ودَعْ غيركَ يعيش) الذي سادَ في البلقان المسلمة ما عاد له مكان في عصر دعوات النقاء الفظيعة. لمرّتيَن في هذا القرن عادَ قاتلو الهراطقة من جديد بالنار والسِّكّين والمعتقد الحقيقي الواحد الوحيد، عادوا ليغزوا شعب البوسنة والهرسك ويجلوه عن بيوته، عادوا لينتزعوا ويطعنوا ويغتصبوا ويحرقوا.

وصلتني رسالة من (N)، هُرِّبَت من سراييفو. تَدَبَّقَت الورقة بِشمع قنديل. أتتذكر جامع ألدازا؟ قامَ الصِّرْبُ بتدميره بالجرّافات. هنالك تقفُ حافلة الآن.

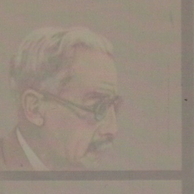
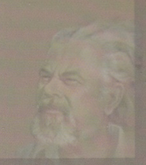
في ما بعد عَلِمْتُ أنَّ المسجد الآخر قد دُمِّرَ أيضاً. بواسطة الكروات هذه المرّة.

فوق الحجارة، ينتثرُ الدخانُ مرّةً أخرى في الريح. تحت الحجارة، هنالك النِّيامُ المختارون. لكن يوم استيقاظهم باتَ قريباً.

****

المحتوى

****

Kameni spavac
Poezija

Prevod:
Iljas Farkuh
Sa engleskog prevoda
(Stone sleeper - Mak Dizdar
By Francis Dzonsa)





Kuvajt
2010